تحوُّلات الشخصية اليهوديّة عبر العصور

د/ سمير ربوزي
جامعة الجزائر 2

الكلمات المفتاحية: بنو إسرائيل - الشخصية اليهودية - عوامل فساد الفطرة - التاريخ - القرآن الكريم

ملخّص البحث:

لم يشغل بالَ المسلمين، وغيرِهم، على مرّ العصور والدّهور، من أحوال الأمم والجماعات، مثلُ ما شغلَهم من خصائص الشخصية الإسرائيلية عموما، واليهودية منها على وجه الخصوص، ويرجع هذا الاهتمام إلى أمور كثيرة، منها عراقة تاريخ الأمّة الإسرائيلية، وكثرة ما بُعث فيها من الأنبياء، ونزل عليها من الشرائع السماوية، هذا من جهة، ومن جهة مقابلة لكثرة ما سجّله التاريخ من جرائمَ وانتهاكات، ارتكبها بنو إسرائيل في حقّ أنبيائهم خاصّة، وفي حقّ الإنسانية على وجه العموم.

تحاول هذه الورقة أن تسلّط الضوء على أبرز المحطّات المؤثّرة في تاريخ هذه الأمّة، وأهمّ ما وقف وراء انطماس فطرهم، وانطباعهم على صفاتٍ ذميمة، وأخلاق رديئة، لم يزل -إلى اليوم- يتوارثها الأحفاد عن الأجداد، اعتماداً على مصادر تاريخية مأمونة، في مقدّمتها أصدق وثيقة تاريخية نقلت أخبار بني إسرائيل، وفضائح اليهود، وهي القرآن الكريم.

***Résumé* :**

Au cours de l’histoire, les musulmans, les groupes humains et les nations se sont préoccupées par la caractéristique de la personnalité israélienne surtout juive. Cette préoccupation d’une part est née grâce à l’ancienneté historique de la nation islamique, aussi au nombre considérable des prophètes y envoyés et les révélations célestes; d’une autre part grâce aux violations et les crimes enregistrées dans l’histoire qui ont été commises par les israéliens contre les prophètes alors contre l’humanité entière.

Dans cette perception on essaye de monter les points importants dans l’histoire de cette nation et de définir les causes de la déformation nuisible des instincts : des mauvaises coutumes…cette déformation est héritée d’une génération à une autre. En montrant ces points, on dépend des sources historiques confiantes surtout le Coran,

المنارة للاستشارات

qui est le plus confiant, sur l'histoire des israéliens et les crimes des juifs.

مدخل:

لن نُبالغَ إن قلنا إنّ الكتابات المخصصة لدراسة الظاهرة اليهودية، وأخبار الأمة الإسرائيلية، من الكثرة بحيث تجاوزت الحدّ المطلوب، وفاقت كلّ التوقّعات والظّنون، ولعلّ الظنّ لا يخيب إن أرجعَ هذا الزّخم إلى أمور ثلاثة، يمكن إيجاز ذكرها فيما يلي:

1. تزايُد انتهاكات اليهود لحقوق الإنسان، وجناياتهم على مقدّرات العالم بأسره، ومقدّسات الأمم والشعوب، الأمر الذي ينتجُ عنه تزايدٌ في الكتابة عنهم، والتشهير بسَوْءاتهم وفضائحهم.
2. أنّ اليهود خاصّة، وبني إسرائيل عامّة، لا يُعرف لهم غياب عن عصر من العصور، ولا عن تطوّر من التطوّرات التي شهدها العالم منذ زمن يعقوب عليه السلام، وإلى يوم الناس هذا، فلا عجَب أن كثُر التأليف فيهم، والكلام عن وقائعهم ودسائسهم.
3. والأمر الثالث أنّ كثيراً من المسلمين، لاسيما في الأزمنة الأخيرة، ركنوا إلى كثرة الكلام، والبكاء على اللبن المسكوب، ومن هؤلاء نجد كُتّاباً عالجوا هذا الموضوع بشيء من الموضوعية، وكثيرٍ من الانطباعية الذّاتية، التي تضيع بين ثناياها التأصيلات المتينة، والتأمّلات الرصينة، التي يحتاجها البحث الهادئ في هذا المجال، ليتمّ له في النّهاية معرفة الدّاء والدواء، وقديما قيل: إذا عُرف السبب، بطل العجب.

وإذ نتقدّم بهذه الورقة، فإنّنا لا نزعم فيها إتياناً بجديد، ولا تنقيصا من الأعمال المتكاثرة المتوافرة السابقة واللاحقة، وإنّما نصبو إلى تشخيص الدّاء العُضال الذي أصيبت به النفسية الإسرائيلية عموما، واليهودية منها على الوجه الخصوص، من خلال تأمّلات هادئة في نصوص قرآنية، وأخرى تاريخية، وإنّنا –في هذا العمل- نصبّ أوفر اهتمامنا على أمرين بالغيْ الأهمّية:

<u>الأوّل</u>: صحّة المعلومة، ودقّة استنباط ما فيها من الأسرار اللطيفة، والحِكم البليغة.

<u>والثاني</u> هو الغاية الأسمى لعملنا هذا، بل لعلم التاريخ، بمختلف أنواعه وأطواره، ألا وهي توخّي أخذ العبر والعظات من أخبار السالفين، مصداقا لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾.

وأخذُ العبرة هنا يُرجى منه تجنّب ما يأتي بيانُه من صفاتٍ ابتُلي بها أكثر بني إسرائيل، فآلت بهم إلى أسوء حال، وشرّ مآل، ورد ذكره في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى

المنارة للاستشارات

في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)﴾

تمهيد:

اتفق العلماء على أن أصل تسمية بني إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وقالوا إنّ إسرائيل كلمة عبرانية، مركبة من "إسرا"، وتعني كلمة عبد، و"إيل"، وهي الله في العبرانية، فيكون المعنى عبد الله[1]. قال الطبري رحمه الله: "وكان يعقوب يدعى إسرائيل، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه، وإيل هو الله، وإسرا هو العبد"[2]، وعلى ذلك فإنّ الأمّة الإسرائيلية متفرّعة عن أبناء هذا النبي الكريم عليه السلام، وهم اثنا عشر ولداً ذكرا، منهم الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف الصدّيق، عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وأخوه بنيامين، اللذان لقيا من إخوتهما ما نقلته لنا سورة يوسف، من الظلم الشديد، والجفاء الكبير، حتّى إنّهم همّوا بقتل نبيّ الله عليه السلام، ولم يرقبوا فيه إلاًّ ولا ذمّة، وهنا نتساءل: ما بال هؤلاء الإخوة يصدر عنهم مثلُ هذا الموقف الوحشي، على الرغم من أنّهم تربّوا في بيت علم ونبوّة؟.

لقد تفنّن الكُتّاب والمؤرّخون، والمفسرون، وحتى القُصّاص والروائيون، في تصوير معاناة نبيّ الله يوسف عليه السلام، وما ألحقه به إخوته العشرة من مرارة عيش، ولوعة فراق، وتعرُّضٍ لمختلف أشكال الابتلاء والمضايقات في دينه ودنياه، ونُظمت الأشعار، وأُلّفت الخُطب، حتى صارت قصّة يوسف عليه السلام حديث العجائز والصبيان، بل صارت مثلا لكلّ حسد يقع بين اثنين، فضلا عن أن يكون وقع بين أخوين أو قريبين، ولكن، ومع ذلك، فإنّ هذا النوع من الكلام لا يسعفنا فيما نبغي الوصول إليه، لأنّه مركّب غالبا من ركنين أساسيين: 1- ذمّ الإخوة العشرة، وتقبيح صنيعهم مع أخيهم. 2- والثناء على نبيّ الله يوسف عليه السلام، وإكبارُ ما صدر عنه تجاهَهم، من كظم للغيظ، وعفو عند المقدرة، وثبات على البلاء، وسلامة من الفتن بأنواعها، وإنما لا يُسعفنا هذا الكلام في معرفة ما إذا كان ما صدر عن أبناء يعقوب عليه السلام العشرةِ، ناشئاً عن طبعٍ فيهم، تميّزوا به عن غيرهم، فيكون صنيعهم مع أخيهم يوسف، وصنيع أحفادهم مع إخوته الأنبياء عليهم السلام، تاريخاً معيداً لنفسه، ومتابعةً للولد أباه في سلوكه ومذهبه، وهو ما يشبه القول بانتقال الطباع بالوراثة؟، أم تُراه يكون ناتجاً عن صفات معيّنة، وظروف خاصة، اجتمعت على بني

المنارة للاستشارات

إسرائيل، فصارت بهم إلى هذه الحال الرّديئة، التي نشأ عليها الشُّبّان، وشاخ عليها الشِّيبان، ويهمّنا نحن أن نعرف هذه الظروف، وتلك الصّفات، لئلا يصيبنا ما أصاب القوم من فساد المظهر والمخبر، فالسّعيد من وُعظ بغيره.

إنّ أكثر من تكلّم عن بني إسرائيل، لاسيما إذا كان في معرض الحديث عن اليهود، إنّما يُفهم من كلامه أنّ القوم جُبلوا على الحسد، والجبن، وكلّ رديء من الأخلاق، ويظهر ذلك بوضوح في كلام بعض المفسرين، وأكثر المؤرخين، حين يشرع الواحد منهم، مباشرةً، في ذمّ إخوة يوسف، وذمّ فِعالهم، دونما بيانٍ لسبب وقوعهم فيما وقعوا فيه. فضلا عن الإشارة إلى أنّ غيرهم من الناس، وحتى المسلمين، يمكن أن يقارف ما قارفوه، وربما أكثر، وهذا واقع الناس شاهد على ذلك، وهذا المذهب غير دقيق، ولعلّه يمثّل جهة الإفراط في التعامل مع صفات بني إسرائيل، وموقف الإسلام منهم.

وأمّا جهة التفريط، فهي التي يقف فيها المرء مدافعا عن هؤلاء القوم، وقد يكون لذلك دوافع كثيرة، يعسر في هذا المقام حصرُها، ولا يهمّنا منها ما كان ذاتيّا، أو عنصريا، كأن يكون صاحب هذا الموقف متعصّبا لهم، أو أحد أفرادهم، وقد أثبت التاريخ أن العنصرية، والتعصّب المقيت، من صفات بني إسرائيل (خاصة اليهود منهم)، ولهذا قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3]، وقالوا ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[4]،﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[5]،و﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾[6]، ولا يزال واقعهم اليوم شاهدا على غرورهم، وإعجابهم بأنفسهم، بل وعدم اقتناعهم بأن أحدا من غيرهم يكافئهم، فضلا عن أن يتقدّمهم، أو يفضُلهم في شيء، قلت لا يهمّنا مثلُ هذه الأقوال والمذاهب، وإنّما الذي يستحقّ المناقشة أن يعتبر بعضُ المتحرّين للإنصاف، والمتخوّفين من نسبة الظّلم إلى المولى تبارك وتعالى، بني إسرائيل كغيرهم من الناس، وأنّ الله تعالى لا يأخذ الأبناء بجُرم الآباء، وأنّه لا تزر وازرة وزر أُخرى، ونحو ذلك من مسوّغات القول بنفي أن يكون بنو إسرائيل منطبعين على صفات قبيحةٍ، وطباع فاسدة، الأمر الذي يفسّر مشابهة الأبناء منهم للآباء، وكونَهم سائرين في خطّ واحد، لا يتغيّر، هو الإجرام، والإفساد، والحقد، والخيانة.

ونحاول في هذه السطور أن نتوسّط هذين القولين، ونسلك طريقة القرآن في رسم معالم الشخصية اليهودية، وبيان ما كان سببا في تخلّصها للشرّ، إلا من رحم الله

المنارة للاستشارات

تعالى، وأنّ بني إسرائيل، إنما وصل بهم الأمر إلى حالهم الرّديء، وصفاتهم القبيحة، بسبب عوامل وظروف، أدّت إلى ظهور الحسد في أصولهم، ثمّ مرورهم بمراحل ومحطّات، أدّت إلى رسوخ هذه الصفة في أحفادهم وفروعهم، بل وظهور صفات جديدة، كانت القرون الطويلة كافية لجعلها منهم بمكان الطبع والسجية، كالذّل، والهوان، والمسكنة، والمكر، والخداع، والإفساد بين الناس، والأدلةُ على ذلك كثيرة، أكتفي منها بما ورد في سورة يوسف من إشارات، ثمّ بوقفات سريعة عند المحطّات الكبرى التي مرّ بها بنو إسرائيل، بدءً ببني إسرائيل الأصول، وهم الاثنا عشر ولدا أبناء يعقوبعليه السلام، ومرورا بمن أدرك منهم الدعوة المحمّدية المباركة، وهم اليهود والنصارى(7) في الاصطلاح القرآني، والواقع العامّ، بما يتشكلّ لنا من خلاله ملامحُ واضحةٌ لهذه الشخصية الغامضة.

وإنما ذكرت قريبا طريقة القرآن الكريم، للإشارة إلى أنّ كثيرا ممن كتب في تاريخ بني إسرائيل، وطباعهم السيئة، جانَب كثيرا من هدي القرآن الكريم، الذي -على سبيل المثال- لم يفتتح ذكر قصة يوسف مع إخوته، بالتشنيع عليهم، أو إصدار أحكام مسبقة، فضلا عن الإشارة إلى تأصّل الشرّ فيهم، ولا أنهاها بتبريئهم، والتماس العذر لهم، كما فعل البعض، لاسيما ممّن بالغ فاعتبر هؤلاء الإخوة العشرة أنبياءً، وراح يناقش مسألة هل كانوا أنبياء قبل حادثة الكيد لأخيهم، أم بعد ذلك، وكلاماً من هذا القبيل(8).

لم يرد في القرآن الكريم هذا ولا ذاك، أعني ما اعتبرتُه إفراطا وتفريطا من أعمال كثير ممّن كتب في بني إسرائيل، أو اليهود خاصّة، وإنما ورد فيه ذكر الدّاء والدواء، بأسلوب حكيم، وطريقة رائعة، الهدفُ منها أن يستفيد المسلم مما في هذه القصة العجيبة من عبر، ويكون ممّا وقع فيه أولئك الإخوة على حذر، مما كان سببا في فساد أكثر أحفادهم وأجيالهم، وحتى لا أطيل كثيرا، فإنني سأكتفي باستخراج ما في سورة يوسف من إشارات مع شواهدها، بما يكفل لنا الاهتداء إلى معرفة أبرز التحوّلات التي مرّ بها الإنسان الإسرائيلي، حتى وصل إلى أسوء ما يمكن أن تكون عليه نفسٌ بشرية، وإلى مرحلةٍ يكاد يكون الطّمع في اهتدائه معها، واستقامة سلوكه ونفسيته ضربا من الخيال.

أبرز الأحداث التي شهدتها الأسرة الإسرائيلية الأولى، من خلال سورة يوسفعليه السلام.

أعرض فيما يلي أربع إشارات قرآنية، تضمّنتها بِضعُ آيات كريمة، من هذه السورة العظيمة، تُعتبر كافية لمعرفة سرّ انطباع أكثر نفوس بني إسرائيل على صفات الشرّ والفساد، والإجابة عن الأسئلة المطروحة سابقا، وأهمّها: لماذا اختصّ هؤلاء القوم بهذه

الصفات؟، وهل كان ممكنا أن يكون غيرهم، إذا ما مرّ بما مرّوا به من ظروف وأسباب، وقام بما قاموا به من أقوال وأفعال، مثلَهم، أو أكثر منهم؟،

فإلى هذه الإشارات، وما فيها من عبر وعظات:

الإشارة الأولى

قوله تعالى في الآية الخامسة من هذه السورة: ﴿ يابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾.

في قوله‌ﷺ ليوسف: ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾، بدل قوله فيحسدوك، دليل على أنّ الحسد كان ظاهرا عليهم قبل ظهور هذه الرؤيا، وإنما كان الذي خشيه‌ﷺ على ولده، هو انتقال الحسد إلى مرحلة الكيد وإلحاق الأذى بالمحسود، وهذه مرحلة حتمية من مراحل الحسد المتقدّمة، ما لم يجاهد الحاسد نفسه، ولم يحتط المحسود لشرّه، ويكن منه على بال، وممّا يؤيّد ذلك، أعني ظهور الحسد في إخوة يوسف قبل مرحلة ظهور الرؤيا، أمران:

أن من المفسّرين من أشار إلى ذلك، قال الطبري رحمه الله: "وإنما قال يعقوب‌ﷺ ذلك، لأنه قد كان تبين له من إخوته قبل ذلك حسد"[9]، وقال ابن عطية: "تقتضي هذه الآية أن يعقوب‌ﷺ كان يحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غلّ صدورهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه.."[10].

والأمر الآخر قول الله تعالى في الآية الثامنة: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾، فبما أنّنا نجزم أن يوسف‌ﷺ لم يكن لِيُخالِفَ وصيةَ أبيه‌ﷺ بعدم إطّلاع إخوته على ما أراه ربّه في منامه، فإنّ مقالة إخوة يوسف في هذه الآية تكون ناشئة عن حسد سابقٍ لهذه الرؤية، وهذا الحسد هو ما جعل يعقوب‌ﷺ يمنع ولده من إظهار رؤيته لإخوته، لأنّه كان على دراية بما يكنّه الإخوة العشرة من حسدٍ له‌ﷺ، وربّما كان يُظهر لهم منه أنّه لا يأمنهم عليه، أو ربما كانت عينُه تراقبُهم حين يكون بينهم، أو نحو ذلك مما يكون من رعايةٍ للمحسود، وحماية له من حاسديه وأعدائه، ولعلّ ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ

المنارة للاستشارات

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)﴾ دليلٌ على صحّة هذا القول، لأنّ فيه بياناً منهم لموقف أبيهم من علاقتهم بأخيهم، وإقرارا منه﷤ بذلك،لأنّه لم ينكر أنّه لا يأمنهم عليه، وهو اتّفاق بينه وبينهم على أنّهم حاسدوه، ومضمرون له شرّا الله أعلم بزمان وقوعه ومكانه.

وبذلك يتبيّن بُعد ما ذهب إليه القرطبي في قوله: "وإنما قالوا هذا-أي قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾- لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فيكيده"[11] من كلّ وجه، ولأنّ ما قاموا به، من محاولة قتله، ثم إلقائه في الجبّ، وبيعه بثمن بخس، ثمّ اتّهامه بالسرقة، بعد سنين طويلة من إبعاده عن أبيه، وغير ذلك من مكائد وبهتان، دليل على أنّ الحسد قد سكن قلوبهم منذ مدّة، وأنّ حادثة الرؤيا، إن ثبت بلوغ خبرها إليهم، وهو بعيد، فإنها لا تعدو أن تكون القطرة التي أفاضت الكأس، والله أعلم.

الإشارة الثانية: قوله تعالى في نهاية الآية السابقة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾.

ورد هذا المقطع من الآية على لسان يعقوب﷤، وهو في مقام تعليل لما يمكن أن يصدر من الإخوة من الكيد العظيم لأخيهم يوسف، وفي ذكر الشيطان في هذا المقام نفيٌ لأنْ يكون الأصل في بني إسرائيل إضمار الشرّ لأهل الصلاح، والسعي في إلحاق الأذى بهم، ونشر الفساد في الأرض، إذ لو كان الأصل في هؤلاء العشرة، بل لو كانوا يضمرون العداوة ليوسف قبل أن يحسدوه، أي بالطّبع فيهم، لقال مثلا: إنّهم كانوا ظالمين، أو قال إن الله لا يحبّ المعتدين، أو نحو ذلك مما يُفهم منه أنّ إخوة يوسف أرادوا به سوءً لمجرّد انطباعهم على حبّ الشرّ، أو الرغبة في الإفساد، ولكن الآية أثبتت أنّ هذا الحسد والكيد، إنما كان يغذّيه الشيطان بما توفّر له من مداخل على قلوب هؤلاء الإخوة المريضة.

الإشارة الثالثة: ومن الإشارات اللطيفة إلى هذا المعنى أيضا، أن الله تعالى قال في الآية السابعة من هذه السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)﴾، وقد اختار كثير من المفسرين المعنى العام لهذه الآية، أي "لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرعجيب، يستحق أن يستخبر عنه"[12]، غير أنّ فريقا آخر من المفسرين تنبّهوا إلى مناسبة نزول هذه القصة على قلب النبيﷺ، في هذه الفترة بالتحديد، وهي مرحلةُ تكذيبٍ شديد له من قومه، وقرابته من قريش، حيث اعتبروا، -أعني هؤلاء المفسّرين-، أنّ الله تعالى إنما أنزل على

انـــارة للاستشارات

نبيّهﷺ في هذا الوقت سورةَ يوسف، وما فيها من أحداث وقعت لهذا النبي الكريم، تسليةً لقلبه، وتثبيتا له، بسبب ما يلاقيه من قومه، وأقرب الناس إليه، قال الطبري رحمه الله: "إنّ الله تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة على نبيه، يُعْلمه فيها ما لقي يوسف مِن أدانيه وإخوته من الحسد، مع تكرمة الله إياه، تسلية له بذلك مما يلقى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش"[13].

وإنما أوردتُ هذا الشاهد في هذا المقام، للإشارة إلى أن الله تعالى ما أنزل هذه السورة في هذا التوقيت المناسب، إلا لحكم جليلة، منها أنّ دعوة الأنبياء واحدة، وأنّ موقف أقوامهم منهم يوشك أن يكون واحدا، ولا يظهر الاختلاف غالبا، إلا في الصور والأشكال، وهذا أقل ما فيه أنّ ما وقع فيه إخوة يوسف ليسوا مخصوصين به، وإنما يشاركهم فيه غيرهم، ممن توفرت لهم أسبابه، وتشابهوا معهم فيه.

وممّا يمكن أن يُعقَّبَ به أيضا على من يطلق نسبة الشر والحسد إلى بني إسرائيل، ثمّ يستدلّ بقصة إخوة يوسف العشرة، معه ومع أخيه بنيامين، أنّ عبارة بني إسرائيل تشمل الأولاد جميعا، بغير استثناء ليوسف وأخيه، ومعلوم ما كان عليه يوسف وأخوه من الخلق الفاضل، والسلوك الرضيّ، بحيث لا يليق بهما أن يُنسب الحسد، وغيره من الأخلاق الرديئة إلى بني إسرائيل، بل لا يليق ذلك بإسرائيل نفسه، وهو يعقوب، ولذلك كان المذهب المعتدل اعتبار صفات الحسد وما يتولّد عنه، ناشئا عن ظروف يأتي بيان أهمّها، لا مجرّد كون أصحابه أجدادا لليهود، أو جُناةً في حقّ أخيهم يوسف.

وممّا يؤكّد ذلك ما نَقَلَته لنا وقائعُ هذه القصة المذكورةُ في سورة يوسف، من أنّ هؤلاء الإخوة العشرة أنفسهم، لم يكونوا على نصيب واحد من هذه المشاعر السيئة، فقد حكت لنا الآية أنّ أحد هؤلاء الإخوة اعترض على قتل يوسف، وأشار على التسعة الباقين بإلقائه في غيابات الجُبّ، وهذا التفاوت يُمكن أن يُعرف بغير الاعتماد على هذه الآية، لأنّ الأسلوب الإعلامي التحريضي الذي سلكه بعض هؤلاء الإخوة في قولهم: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾، يُشعر بأنّه كان فيهم معارضون، أو على الأقل متردّدون، لسبب أو لآخر، قد يكون بقيّة من الخير والرشاد، وقد يكون الخوف من العاقبة، وقد يكون بعض مشاعر الأخوّة والرأفة، ولذلك تطلّب الأمر أن يجتهد من امتلأ قلبُه حقداً، وعزم على إيقاع الأذى بأخيه، في إغراء هذا الصنف المتردّد من الإخوة، ولعلّه يكون من الإخوة لأب أيضا، لأن أولئك العشرة لم يكونوا أشقاء جميعهم، وإنما تنقل لنا أخبار التاريخ، وأقوال المفسرين أن "ستّة فقط من أبناء يوسف كانوا

المنارة للاستشارات

أشقاء، وُلدوا ليعقوب من زوجه ليئة، وهم رأوبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشجر، وزيالون، وأما الستة الباقون فكلّ اثنين منهم لأمّ، إمّا راحيل: وولداها يوسف وبنيامين، وإمّا زلفا، جارية ليا، وولداها جاد وأشير، وإما بلها جارية راحيل، وولداها: دان ونفتالي[14].

الإشارة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الآية إشارات بالغة الأهمّية، لها نصيب وافرٌ من الطّرق الموصلة إلى هدفنا المنشود في هذا الجزء من المبحث، وهو معرفة سبب صدور الحسد في أبناء يعقوب‍، وما يتفرّع عنه من صفات كذب، وحقد، وغلّ، ومكر، وخديعة، ونجمل هذه الإشارات فيما يلي:

قولهم: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾: مع أنّه أخوهم أيضا، فيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الأخ، وهو بنيامين، أخ شقيق ليوسف‍، وأمّهما راحيل كما تقدّم، وهذا ما تثبته كتب التاريخ والتفسير المختلفة، ويُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) ﴾، فقد وردت الإشارة إلى بنيامين في هذا الموضع الوحيد في سورة يوسف على أنّه أخٌ لأب، في مخاطبة يوسف‍ لإخوته، بينما في بقية المواضع كان يُنسب إلى يوسف على أنّه أخوه بإطلاق، كما في مقالة إخوة يوسف في آية الباب، وكما في قوله تعالى: ﴿ولَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) ﴾، وقوله تعالى على ألسنة إخوة يوسف: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وغيرها.

وفي هذه الإشارة مكوّن من مكونات الحسد في نفوس هؤلاء الإخوة، وهو الفكر العنصري، ويظهر من كون المحسود أخاً لأب، وليس أخا شقيقا، وهذا السبب لا يمكن أن يستقلّ وحده من وجهين: **<u>الأوّل</u>** أنّ عدم كون الأخ شقيقا لا يكون دائما حاملا على حسدِه، و**<u>الوجه الثاني</u>** أنّ الأخ قد يحسد أخاه الشقيق أيضا عياذا بالله تعالى، وإنّما اعتبرنا هذا العنصر مكوّنا فرعيا لظهور الحسد في نفوس القوم، لأنّه إذا اجتمع إلى ما يأتي ذكره من

الـمنارة للاستشارات

عناصر، يصير فاعلا، لاسيما إذا كان هنالك إخوة أشقّاء، ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية لتحذّر من هذا المزلق النفسي الخطير، وهو التفريق بين أبناء الزوجات، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وفيه أنّ أباه بشيرا أعطاه عطية دون سائر إخوته، فلم ترض أمّه عمرة رضي الله عنها هذه العطية، واشترطت لقبولها أن يشهد عليها رسول اللهﷺ، فلمّا عرض بشيرﷺ عطيّته على رسول اللهﷺ، سأله: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال لا، قال: «فاتَّقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[15].

وفي هذا الحديث ذكرٌ للتقوى، إشارةً إلى خطورة الأمر، وفيه إطلاق الأمر بالعدل، حتى لا يُفهم منه أن العدل يكون في العطايا وحسب، أو نحو ذلك من الأمور المحسوسة، إذ قد يكون التفريق بين الأولاد في قُبلة، أو ابتسامة، أو ربما فيما دون ذلك مما يحقر الناس، ولذلك جاء الأمر بالعدل بين الأبناء مطلقاً في هذا الحديث وغيره.

وهنا مسألة قد تشوّش على البعض هي: هل معنى هذا الكلام الأخير أن يعقوبعليه السلام كان مساهما في ظهور الحسد بين إخوة يوسفعليه السلام؟، وبعبارة أخرى، هل ظهر منهعليه السلام، ما يمكن أن يكون سببا في إغارة صدور الإخوة الأشقاء، على أخويهم؟.

في الحقيقة ليس في سورة يوسف إلا نفي أن يكونعليه السلام مقصّرا في واجب العدل بين أبنائه، وسدّ كل الطرق المؤدّية إلى وقوع الحسد والشنآن بينهم، وإن كان شيءٌ، فما ورد على ألسنة الأبناء العشرة، وليسوا محلّ ثقة وقت صدور مقالتهم تلك، وهي قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾، وحتى وإن صحّ هذا القول، فإنّ مسألة الحبّ ليست في يد الإنسان، وإنّما هو مغلوبٌ عليها، وهنا ملاحظتان:

- أن يعقوبعليه السلام معذور في تفضيل يوسف وأخيه على سائر أولاده، من عدّة وجوه، نختار ثلاثة منها:

-1-أنّهما الأفضل، والأكثر تخلّقا، وأدبا، وبرّا بوالدهما من بقيّة الإخوة، والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصى، وهل يستوي قول يوسف مثلا: يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، وقول إخوته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾، وقولهم له كفاحاً في موضع آخر: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)﴾.

-2- **والوجه الثاني** أنّ يوسف وأخاه كانا أصغر أولاد يعقوبعليه السلام[16]، فكان لذلك مزيد شفقة أبيهما عليهما، وحبّه لهما، قال ابن عطية رحمه الله: "حبّ يعقوب ليوسفعليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمّهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل

إنارة للاستشارات

لبعضهم: أيّ بنيك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق "[17].

-3- **وأما الوجه الثالث**: فلأنّ يوسف وأخاه، زيادةً على صغرهما، وموت أمّهما، فإنّهما ابنا شيخوخته‎ﻋﻠﻴﻪ السلام، ومعلوم أن الرجل إذا ولد له ولد، وهو شيخ كبير، فإنّه سينال من عطفه، ومحبّته، ما لم ينله إخوته قبله، وقت كهولته أو شبابه، لأن الشّيخوخة مظنّة الانكسار والرّقة، ولذلك جاء في سفر التكوين: "وأما إسرائيل، فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه، لأنّه ابن شيخوخته، فصنع له قميصا ملوّنا، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه"[18].

ولكن، مع ذلك، وإنصافا لهذا النبي الكريم عليه السلام، فإنّ مجموع ما ورد في نسبة ميله إلى ولديه يوسف وبنيامين، وتفضيلهما عن باقي أولاده، كما في تفسير البغوي مثلا، قال رحمه الله: "كان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة.."[19]، وقال صاحب تفسير المنار: "ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا:

دلائلُ العشق لا تخفى على أحد *** كحامل المسك لا يخلو من العبق "[20].

وغيرها من الأقوال، مضافاً إليها ما في سفر التكوين، من صنع القميص الملوّن ليوسف عليه السلام، واعتبارها قرائن دالّة على ميل نبيّ الله يعقوب عليه السلام إلى ولديه يوسف وبنيامين، أقوالٌ حسنة، ولكن أحسنُ منها تنزيهه عليه السلام من ذلك، لاسيما وأنّ النص لم يأت بذلك، بل جاء بنقيضه، من تكذيب مدّعي ذلك، وكشف مكنون صدورهم، وسيّء فعالهم.وحتى وإن كان بدر منه عليه السلام بعضُ ما يحرّك مكامن الشرّ في نفوس الإخوة العشرة، إلا أنّه لا يعتبر عذرا لهم في مطاوعتهم أنفسَهم، واستجابتهم لأوامر شياطينهم بالكيد لأخيهم الغلام البريء، وتعريضه للخطر والضرر.

وعليه، فإنّ بين أيدينا، إلى حدّ الآن، سببين لنشوء الحسد في نفوس إخوة يوسف، أحدهما ثابت، والآخر محتمل، الثابت كونه أخا لأب لهم، وليس شقيقا، (العنصرية) والآخر كونُهم عاينوا من أبيهم عليه السلام ميلا إلى يوسف وأخيه، فتأجّجت نار الغيرة في قلوبهم، وأعماهم الحسد، فأصبحوا مبغضين لأخويهم، راغبين في أذيّتهما.

ولعلّ مما يستبعِد كون الحقد والحسد ناشئين عن شعور الإخوة بميل أبيهم إلى يوسف وبنيامين وحسب، ويؤكّد ما سبقت الإشارة إليه، من أنّ الحسد كان سابقا لحادثة الرؤيا، وربما بسنوات، أنّ الآية الكريمة الثامنة، نقلت لنا تضجّر الإخوة من حبّ أبيهم

المنارة للاستشارات

لأخويهم أكثر منهم، ثمّ جاءت التاسعة لتحكي لنا تآمرهم على قتل يوسف﴿ع﴾، وهنا سؤال: لماذا إذن لم يتآمروا على قتل الأخوين معاً؟.

لاشكّ أن حقدهم على يوسف أكثر من حقدهم على أخيه يستبعد، ولو قليلا، احتمال رجوع هذا الحسد إلى هذه المحبّة وكفى، بل حتى اعتبارها سببا أساسيا في ظهور هذا الداء فيهم، لأنّ الذي يظهر، والله أعلم، أنّ هنالك أسبابا أخرى، هذا أوان ذكر سبب آخر منها، لا أشكّ في كونه متقدّما على غيره في وقوع هذه البلوى، وهو الجهل، والجهل ظاهر في كلّ فصول هذه القصة، ومنها مقالتهم الأخيرة: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾، لأننا إذا اعتبرنا هذا القول صحيحا، ولو من وجه أو وجهين، فإنّه قول صادر عن جهل، لأنّ الحب، كما تقدّم، ليس ملكا لصاحبه، وحسبنا في ذلك أنّ ربّ العالمين أمر بالعدل بين الزوجات، ثمّ قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[21]، "أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع"[22]، هذا على فرض أنّه بدر من يعقوب﴿ع﴾ ما يكشف عن تفضيله في المحبة يوسف وبنيامين على باقي أولاده، وأمّا إن لم يثبت ذلك، وكان منهم محض تكهّن، وتطاول على السرائر، ورجم بالغيب، فإنّهم يكونون مع كونهم جُهّالا، قوماً بُهتا وأفّاكين.

ومما يدلّ على جهلهم أيضا قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، "أي نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة"[23]، فالمقياس الذي اعتمد عليه هؤلاء، مقياس رديء فاسد، بل هو مقياس دنيء، يبتغي به صاحبه المعاوضة والمقابل، نظير ما يبذله لمن يرجو محبّته من خدمة ومنَعة، فكأنّهم قالوا نحن من يمنع أبانا، ويخدمه، فكيف يحبّ غيرنا أكثر منا، كان عليه أن يحبّنا نحن، نظير ما نقدّمه له من خدمة ورعاية، "بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنّوا مدارك يعقوب﴿ع﴾ مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل، غير ما ينظره من دونهم"[24].

وأختم هذه الإشارات بما ورد ذكره أخيرا، وهو ما تحكيه كتب التاريخ، وأخبار بني إسرائيل، وهو أنّ هذه الأسرة الأمّ لبني إسرائيل، كانت تسكن البادية[25]،ويظهر ذلك جليّا في قوله تعالى على لسان نبيّه يوسف﴿ع﴾: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

إشارة للاستشارات

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾، وعامل البداوة هنا مؤثّر جدّا، وقد تقرّر أنّ البداوة تورث الجفاء والغلظة، يُعرَف ذلك بالمشاهدة، ويؤكّده قولُه عليه الصلاة والسلام: «من بدا جفا»[26] قال الزمخشري: "..أي من سكنها صار فيه جفاء الأعراب، لتوحّشه، وانفراده، وغلظ طبعه، لبعده عن لطف الطباع، ومكارم الأخلاق، فيفوته الأدب، ويتبلّد ذهنه، ويقف عن فهم دقيق المعاني ولطيف البيان.."[27]، فبنو إسرائيل الأوائل اجتمع إليهم، إضافة إلى الأسباب السالفة الذكر، أنّهم كانوا بدواً، فجهل، وحسد، وبداوة، وغلظة طباع، كلّ ذلك، مع ما سيأتي، أسهم في مسخ عقلياتهم، وتشويه نفوسهم، ليصيروا منكوسي الفطرة، يستحسنون القبائح، ويستقبحون الحسنات، ولم يبق لنا في هذه النقطة إلا الإشارة إلى أمرين هامّين، لننتقل بعد ذلك إلى مرحلة ما بعد يوسفﷺ، وهي المرحلة المحورية في حياة بني إسرائيل، وفيها تشوَّهَ أكثر ما بقي سليما من فِطَرهم، على أيدي الفراعنة، بعدما أصلح الله تعالى بين يوسف وإخوته، وطلبه منهم أن يأتوا إلى مصر بأهلهم أجمعين:

الأمر الأول: أنّ مما يمكن إضافته إلى أسباب ظهور الحسد في بني إسرائيل العشرة، أنهم كانوا في بيت علم ونبوّة، ثمّ ظهر التفاوت بينهم، مع ما سبقت الإشارة إليه من أسباب مشاركة أخرى، وهي العنصرية، والجهل، والبداوة، ومما يُستأنس به في إثبات هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)﴾[28]، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[29]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)﴾[30].

ففي هذه الآيات، ونظائرها، إشارة إلى أنّ مجيء العلم كثيرا ما يكون سببا في ظهور الحسد والبغي، وذلك بحصول التفاوت بين الأقران، والتفاضل بين الإخوة والصنوان، وهذا أمر مشاهدٌ، فكثيرا ما يدبّ الحسد بين طلبة العلم، وأهل الديانة، ومتى كان الشيطان ينزع عن أهل العلم والدّين؟، إنّهم سهمه الذي لا يخطئ، وسيفه الذي لا يصدأ، إن هم طاوعوه، ولم يحتاطوا لمدخله الخبيث هذا، وهو إنشاء الحسد من بعد ظهور العلم والدّيانة، فإن عجز أن يوقع بينهم الحسد، كما حصل بين أبناء يعقوب العشرة، وأخيهم يوسفﷺ، بسبب ما عاينوا منه من علامات التفوّق والنّجابة، وما تكشّف لهم من

انارة للاستشارات

إرهاصات تشريفه بمقام النبوة والصلاح، إن عجز عن ذلك، ولم يتحقّق له مراده من زرع بذور الحسد بين أهل العلم، وأصحاب الشرف والمقامات العالية، دخل عليهم من جهة الكبر، فإنّ الكبر موصل إلى الحسد، بحيث لا يتقبّل المتكبّر أن يتفوق عليه غيره ممن يحتقره، فإذا رآه يتفوق عليه، ويرتفع فوقه، حسَده، وكاد له ما أمكن من الشرّ والأذى، كما حصل لإبليس حين رأى من تكريم الله تعالى لآدمعليه السلام، وقد كان منطويا على الكبر والتعالي على غيره، فهاله الأمر، وأصابه الجنون، وتولّد في نفسه الخبيثة حسدُ هذا المخلوق الجديد المكرّم، فأعلن عليه الحرب التي لا تنطفئ نارها، ولا يتوقّف كرّها وفرّها، ما بقي الليل والنهار.

وهذا ما حصل لمعشر يهود، كما سيأتي، فإنّهم، لأسباب يأتي بيان أهمّها، انطبعوا على خُلق الكبر والغرور، فلمّا بُعث هذا النبيّ العربيّﷺ، وكانوا يعترفون بنبوّته، ويجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، حسدوه، وتربصوا به الدوائر، ولا يزال المسلمون يطّلعون على خائنة منهم، إلا قليلا منهم، والحمد لله تعالى على أنّهم كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها سبحانه، لأنّه لا يحبّ المفسدين.

والأمر الآخر هو أنّ إخوة يوسف، وأيّ إنسان أو جماعة، إذا تمكّن الحسد من نفوسهم، ولم يقاوموه بالوسائل المشروعة، فإنّه لا يبقى عند حدود تمنّي زوال النعمة عن المحسود، بل يتولّد عنه صفات ذميمة أخرى، ولذلك قيل "الحسد داء الجسد،..وقيل في منثور الحكم: الحسود لا يسود"[31]، ومن هذه الصفاتِ الكذبُ، فالكذب أخو الحسد، وثمرته التي ترافقه حيث كان، إذ الحاسد يتمنّى زوال النعمة عن المحسود، ويتطلّع إلى رؤيته مغموما مكلوما، فإن سئل قال أحبُّه، أو على الأقل لا أحسده، ولا يغمّني سروره، ولذلك نجد إخوة يوسفعليه السلام لمّا تمكّن منهم الحسد، ظهر فيهم الكذب، واستعملوا التآمر والتحايل على أبيهم، لحمله على إرساله يوسف معهم، ثم على تصديقهم في كذبتهم السخيفة التي اخترعوها ليدفعوا عن أنفسهم تهمة إذايته، وإبعاده عن أبيه، وفيما يلي بعض ما يدلّ على ذلك مما جاء في سورة يوسف:

-﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12)﴾.

-﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16)﴾.

-﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)﴾.

إنـــارة للاستشارات

-وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (18)﴾.

-﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ...(77)﴾.

كلّ هذه الأكاذيب بسبب ما كان في قلوبهم من الحسد لأخيهم، وليس ذلك وحسب، بل قد طمس الحسد على آدميّتهم، وقتل فيهم شعور الأخوّة، فقد كان في وسعهم أن يشروا يوسف بثمن معتبر، ولكنهم باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)﴾، إذ لم يكن قصدهم الاتّجار ببيعه، ولا الطمع في ما ينالونه من ثمنه، وإنّما كان همّهم أن يخلّصهم من اشتروه منه، ويغيّبوه عن أنظارهم، ولذلك، كما روي عن مجاهد رحمه الله، فإنّهم بلغ بهم الأمر إلى أنّهم "لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه، لا يأبق حتى وقفوه بمصر"[32]!.

فانظر عاقبة الحسد الوخيمة: عشرة إخوة أشدّاء، يرتعدون فزعاً، وترتعش قلوبهم خوفا، من أن يتفلّت هذا الغلام الضعيف ممّن اشتروه، ويعود إلى إرعابهم، وإيقاد نار الحقد في قلوبهم، وإبعاد النعاس عن أعينهم، ولذلك اتّبعوا هذه القافلة كلّ هذه المسافة التي قطعتها، حتى تصل إلى مصر، لتطمئن قلوبهم المفزوعة، وتتيقّن بُعد يوسف عنهم وعن أبيهم!.

من أجل ذلك جاءت النصوص الشرعية المتوافرة في تحريم الحسد، والتحذير منه، لما يترتّب عنه من عواقب وخيمة، وصفات ذميمة، لا يمكن أن تخطر لعاقل على بال، قال بعض السلف: "الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، يعني حسد إبليس لآدمعليه السلام، وأول ذنب عصي الله به في الأرض، يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله"[33]، وقال ابن القيّم رحمه الله: "الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس_وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا، فالحاسد من جند إبليس"[34].

- أهمّ التطوّرات التي شهدتها الأمّة الإسرائيلية وساهمت في فساد أفرادها:

خلاصةً لما سبق من هذه المرحلة العصيبة من تاريخ أمّة بني إسرائيل، فإننا نصل إلى أنّ أبناء يعقوب العشرة، أحاطت بهم عوامل وظروف، زرعت في نفوسهم، مع مطاوعتهم لها، بذرةَ الحسد، التي اجتمع إليها أسباب أخرى، على رأسها الجهل، ثم البداوة، والتفكير العنصري، وغير ذلك، فأدّى ذلك كلّه بهؤلاء العُصبة إلى الاستجابة لنداء

الشيطان، وتنفيذ أوامره بالسعي إلى قتل يوسف، أو إبعاده، وبذل كل وسيلة في سبيل تحقيق ذلك.

ثم تسارعت الأحداث، ومرّت السنوات، واتّسع صدر يوسفعليه السلام لإخوته، فعفا عنهم، وضمّهم إليه، ونقلهم من نقاوة البداوة، ومهنة الرعي، وخشونة الصحراء، إلى ضوضاء الحاضرة، ونعيمها، واحتراف الصناعات والمهن اليدوية والعلمية المختلفة، ويعترف بعض الباحثين أن بني إسرائيل في عهدهم المصريّ، أي الممتدّ ما بين انتقالهم مع أبيهم يعقوبعليه السلام، وجميع أهليهم، إلى مصر، وخروجهم منها مع نبيّ الله موسىعليه السلام، وهي فترة طويلة قدّرها "أغلب الباحثين بحوالي ستّمائة عام"[35]، برعوا "في المهن اليدوية والفنية، كالطب والهندسة والصيدلة وصياغة المجوهرات..فكانوا هم عصب الحضارة النشيط أيام الفراعنة، ولذا فقد رفض فرعون أن يسمح بهجرتهم من بلاده مع موسىعليه السلام، لأن هجرتهم ستسبّب شلل الحضارة في بلاده، وقد ذكر القرآن الكريم أن السامري قد صنع لبني إسرائيل عجلا من الذهب، إذا ضربته الريح صوت، وهذا فن عظيم بلا مراء، والسّامري هو أحد أفراد بني إسرائيل"[36].

وهنا سؤال: ما الذي حدث طيلة هذه المدّة، بحيث يمكن الرجوع إليه لمعرفة سبب فساد العقلية الإسرائيلية، وتعرّضها لغضب الله تعالى، ومقته ولعنه؟.

سبقت الإشارة إلى أنّ نهاية مأساة يوسفعليه السلام مع إخوته العشرة، كانت بأن عفا عنهم، وطلب منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، وعلى رأسهم أبوهم يعقوبعليه السلام، بعدما أعزّه الله تعالى بأن جعله عزيز مصر، أي وزير ماليتها، والقائم على خزائنها وخيراتها، ولاشكّ أن هذا الوقت الذي انتقلت فيه العائلة الإسرائيلية الأمّ إلى مصر، كان وقت رخاء وبركة، بالرغم من أنّ سِنِي الجدب السبع لم تنقض بعد، لأنّ ما أشار به يوسفعليه السلام على ملك مصر، من إبقاء ما حصدوه في السبع سنين الأولى في سنبله، كان سلوكا اقتصاديا رشيداً، جنّب مصر وأهلها أزمة كانت ستأكل الأخضر واليابس، بل إنّ ابن كثير رحمه الله، حكى عن جماعة من المفسّرين أن الله تعالى رفع عن أهل مصر ما تبقّى من هذه السنين المجدبات، ببركة قدوم يعقوبعليه السلام إليهم[37]، فيتحصّل لدينا أنّ بداية حياة بني إسرائيل في مصر كانت موفّقة، ومهيّأة لسعادة الدين والدّنيا:

فمن سعادة دينهم ترعرُعُ أبنائهم بين أحضان نبيّين كريمين، يوسف ويعقوب، واستقرار أوضاع الدولة المصرية، الأمر الذي يهيّئ أجواء العبادة، وقراءة صحف إبراهيم، ووصايا إسحاق، ويعقوب ويوسف لهم، مما أوحى الله تعالى به إليهم من الهدى والنور، وتشير أخبار التاريخ، وقصص الأنبياء، إلى أنّ يعقوبعليه السلام"أقام بمصر سبع عشرة سنة،

الإشارة للاستشارات

ولم يتوفّ يوسف عليه السلام إلا بعده بنحو من ستّ سنين، لأن مجموع ما عاشه يوسف بعد اجتماعه بأبيه ثلاث وعشرون سنة[38]،وهي فترة كافية لإرساء قواعد الدّين، ونشر التوحيد في ربوع مصر وما حولها، ونفي الشرك بالله تعالى، وحسم مادّته بالكلّية.

ومن سعادة دنياهم انتشار المال، وظهور الحرف والصناعات، ونشاط التجارات، وازدهار الزراعات المختلفة، فتكاثَرَ المال في أيديهم، ومهروا في فنون عديدة، وأقبلت عليهم الدنيا بخيراتها، ومباهجها، حتى ظهر في مصر أمرٌ كان له عظيم الأثر في حال الأمّة الإسرائيلية عموما، وعلى نفسيات أفرادها على وجه التخصيص، وقبل ذكر هذا الأمر العظيم، لا يفوتني أن أنبّه على مسألة في غاية الأهمّية، وهي عطف هذا الذّم لإخوة يوسف عليه السلام بالإشارة إلى أنّ آياتٍ صريحةً حكت لنا استغفارهم، واعترافهم بخطيئتهم، وأهمّها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) ﴾، وهنا ملاحظتان:

على الرغم من أنّ هؤلاء الإخوة اعترفوا بخطيئتهم، واستغفروا لذنوبهم، بل واستغفر لهم نبيّان كريمان، مما يكاد يقطع بتجاوز الله تعالى عنهم، وتكفيره سيئات ما عملوا مع أخيهم يوسف عليه السلام، إلا أننا لا نفهم من هذه الآيات أن هؤلاء الإخوة قد تخلّصت قلوبهم لحبّ يوسف عليه السلام، وتطهّرت من أدران حسده وبغضه، وما أصعب ذلك، لأنّ القلب إذا تلوّث بخلق ذميم، وطال عهده به، فإنّه يصعب جدّاً تخلّصه منه في وقت يسير، إلا من وفّقه الله تعالى لذلك، وحتى لو سلّمنا نقاوة قلوب هؤلاء الإخوة، وانطفاء نار الحسد في نفوسهم، فإنّ أحدا لا يستطيع أن يثبت ذلك لنسائهم وذرّياتهم، وقد نقلت لنا أخبار التاريخ، والقصص القرآني، أنّه قدم إلى مصر من بني إسرائيل أكثر من ستّين نفسا، وقيل بل أكثر من ثمانين[39]، ونقل ابن كثير عن مسروق، أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعين إنسانا[40]، ولعلّه الأقرب إلى الصواب، إذا صحّ أنّ الفترة التي قضاها يوسف بعيدا عن أهله في مصر هي ثمانون عاما، وأيّا كان العدد، وحتى وإن كان القول الأول هو الصحيح، وهو قول منسوب إلى ابن مسعود، أنهم كانوا واحدا وستين إنسانا[41]، فإنّه يستبعد أن يُقال إنّ هؤلاء جميعا ألقوا عداوة يوسف وأخيه، وحسدهم لهما وراء ظهورهم، لأنّ هؤلاء النسوة والذّرية، تربّوا في بيوت لطالما تجاذَبَ أفرادُها أطرافَ الحديث عن يوسف وأخيه بنيامين،

المنارة للاستشارات

الذي لا يزال هو وبنوه بين ظهرانيهم، ولا يزال يعقوبعليه السلام في نظرهم يفضّله وأخاه عليهم، ويبكي حسرة على فراق يوسف عليهما السلام، وتحكي لنا آية من سورة يوسف، أنّ إخوة يوسف لم يزالوا على عداوته، وإضمار بغضه والحقد عليه، طيلة فترة ابتعاده عنهم، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[42]، فهل جرّبوا على يوسف سرقةً حتى يرموه بها في هذا الموضع، أي بعد ثمانين عاماً من فراقهم له؟، ألم تكفهم كلّ هذه المدّة لمحو آثار الحسد عن قلوبهم؟.

إنّ ذريةً هذه آباؤهم، ونسوةً هؤلاء أزواجهم، لا يشكّ عاقلٌ في أنهم يكونون على نصيب وافر من هذا الخلق الفاسد، والعقلية الرّديئة، وهي كراهية أهل الفضل، وتمنّي زوال النعمة عنهم، وعدم الرضا بتفوّق غيرهم عليهم، وسوف يأتي معنا في السطور القليلة القادمة، كيف أنّ هذا الخُلق بقيت أشجاره تثمر الأشواك، وبقي بنو إسرائيل يتوارثونه، ويتعاقبون عليه تعاقب الليل والنّهار، لاسيّما بعدما دخلوا المرحلة التاريخية الثانية، وهي لعْنُ الله تعالى لهم، وغضبه عليهم، إلى يوم القيامة إلا من رحم سبحانه، وما أقلّهم في أقوامهم، كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم: «لو آمن بي عشرة من اليهود ما بقي على ظهرها يهوديٌّ إلا أسلم!!»[43].

أعود إلى ذكر ما عرفته مصرُ من تحوّلٍ في التعامل مع بني إسرائيل، مما كان سبباً في تغيير فطرهم، وتشويه فِكَرهم، وجعلهم أسوء ملّة عرفها التاريخ:

وذلك أنّ بني إسرائيل، بما أنعم الله تعالى عليهم، من إخراجهم من نسل الأنبياء، وتربّيهم في الأوساط العلمية، والبيئات الدينية، تمكّنوا، بعد مدّة من إقامتهم بمصر، من السيطرة على عناصر الحضارة المصرية[44]، وبقيت لهم الصّدارة في شتى الميادين، حتى بلغ بهم ذلك أن شكّلوا عنصر تهديد لأحد ملوك مصر، وهو فرعون الطاغية، الذي أرسل الله تعالى نبيّه موسى إليه، فأعمل فيهم السيف، واستعبدهم، وأذلّهم، وسلّط عليهم مختلف أشكال القتل، والتعذيب، والتذبيح، وفي قصص الأنبياء لابن كثير، أنّ الذي حمل فرعون على هذا الصنيع، "أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيمعليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه..، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدّث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرا من وجود هذا الغلام"[45].

وقيل إنّ الحامل له على ذلك شيءٌ رآه في منامه، فأزعجه، حيث رأى "كأنّ نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان(46).

وأيّا كان السبب، ولو أنّه يمكن الجمع بين القولين، فإنّ فرعون كما قال ربّ العالمين عنه في سورة القصص: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) ﴾، والطائفة هنا هي بنو إسرائيل، اتّفاقاً بين أهل التفسير.

وإنّ المتأمّل للنصوص القرآنية الحاكية قصص موسى مع فرعون، ليظهر له طول المدّة التي ذاق فيها بنو إسرائيل شتّى صنوف العذاب من فرعون وملئه، من تعبيد لهم إيّاه، واستعمالهم في المهامّ الشاقّة، والأعمال المرذولة، فقد بقي سنين طويلة قبل ميلاد موسىعليه السلام، يذبّح الأبناء، ويستحيي البنات، حتى جاء العام الذي نجا فيه موسى من الذّبح على أيدي سفّاحي فرعون، ثمّ بعد هذا العام، سنوات طويلة أخرى، أربعون منها على الأقلّ قبل تشريف الله تعالى له بالنبوّة، ثمّ ما تلاها من صراع مع فرعون، إلى أن أنجى الله تعالى موسى وقومه من بني إسرائيل، والحاصل أنّ بني إسرائيل طال عهدُهم بالاستضعاف والاستعباد، "حتى أصبح الصغار والمسكنة والهوان لازمة لهم"(47)، ولكن هل يُقال إن هذا وحده هو ما جعل بني إسرائيل ينطبعون على خصال الذّل، والهوان، والمسكنة، والرضا بالدّون والدّنية؟.

الحقيقة أن إطلاق هذا القول على عواهنه فيه مجازفة خطيرة، إذ يهدم أصلا من أصول الشريعة، وبابا عظيما من أبوابها، وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنذ متى كان الاستعباد، والاستضعاف مبرّرا للذّلة والاستكانة، وعدم مجابهة الخطوب، والمطالبة بالحقوق؟.

في الحقيقة لم يكن هذا الأمر السبب الوحيد الذي أدّى بشعوب بني إسرائيل إلى أن تصير شعوباً ذليلة، خائرة جبانة، هو أنّهم كانوا -قبل مجيء فرعون- منغمسين في الملذّات، متّبعين للشهوات، إلا قليلا منهم، وعوداً على بدء، وحتى لا يُفهم من هذا الكلام أنّ تعرُّضَ الأمّة الشهواتية للظلم والأذى، يحوّلها إلى أمّة مذلولة، منكسرة مخذولة، فإنّنا نذكّر بما ورثه بنو إسرائيل الأحفاد عن آبائهم الإخوة العشرة، فمَن دونَهم من الأبناء

إشارة للاستشارات

والذّراري، وهو الحسد، الذي انضاف إليه بسبب اجتماع هؤلاء القوم إلى من دونهم في العلم، والدين، والنسب، وإتقان الحرف والصنائع المختلفة، خلقٌ رديء آخر، لم يزل بنو إسرائيل معروفين به إلى اليوم، وهو العُجب والغرور، فبنو إسرائيل، ومنذ نشأتهم الأولى، لم يزل ربّ العالمين ينعم عليهم، ويؤتيهم ما لم يؤت غيرهم من الأمم والشعوب، وفي هذا يقول سبحانه مخاطبا إياهم، ومعاتبا لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)﴾[48]، وقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20)﴾[49]، وآيات كثيرة أخرى فيها امتنان عليهم، وتذكير لهم بما أنعم الله تعالى به عليهم من النّعم والآلاء، التي كان عليهم أن يشكروها، ويحافظوا عليها، غير أنّهم اغترّوا بسببها، وظنّوا أنّهم أفضل العالمين على الدوام، لا في زمانهم الأول كما هو مراد الله تعالى من هذه الآيات، وكما ورد في كتب التفسير:

فحسدٌ، وغرور، وفساد وفجور، وإقبال على الدّنيا، ثمّ قهر واستعباد، وتعذيب واستذلال، النتيجة: شعبٌ مذلول، مقهور، مطبوع على خيانة الآخر، واستحلال ماله، وفعل أيّ شيء من أجل الدينار والدّرهم، ومن عجيب ما ورد في توراتهم، وذكره "غير واحد من المفسرين، أن نساء بني إسرائيل استعارت حليّ نساء الأقباط قبيل هجرتهم مع موسى عليه السلام بأيام، وغادروا مصر وهي معهم، ومنها صنع السامري عجل الذهب الذي عبدوه"[50]!.

فيا للعجب، قوم تحت طائلة العذاب، ويعاينون الآيات والمعجزات، وبصحبة نبيّ يأتيه من خبر السماء ما فيه خبر خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي أيّام عصيبة، وخوف شديد، ويخطر ببال هؤلاء النسوة هذا المكر الخبيث، أن تستعرن حليّ القبطيّات، بنيّة الغدر بهنّ، ولا غرابة، فالإسرائيلي يستحلّ مال غيره، لأنّه يعتقد أن كل ما على هذه الدنيا ملكٌ له، فهو أولى به، وأن تصطحبن المال الحرام في رحلة نبوية مليئة بالمعجزات، إنّ هذه الواقعة لتكفي لتصوير العقلية الإسرائيلية، وتبيّن لنا خطورة الانكباب على الدّنيا، وعدم التعلّق بالآخرة، لاسيما إذا صاحب ذلك غرورٌ وحسد، ثمّ تعرّض من هذا حالُه إلى الاستضعاف والاستعباد، إنّها لمن أسوء الأحوال التي يمكن أن يكون عليها إنسان.

بالرغم من ذلك، يقول الله تعالى بعد ذكر حال بني إسرائيل في الاستضعاف والاستعباد: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

المنارة للاستشارات

الْوَارِثِينَ (5) ﴾[51]، الذين استُضعفوا المذكورون في هذه الآية هم بنو إسرائيل، اتفق على ذلك أهل التفسير، لا يزال ربّ العالمين مُكرما لهذه الأمّة حتى هذه المرحلة، وهي مرحلة ما بعد الاستضعاف، فقد أرسل إليهم موسىعليه السلام، وأنجاهم به من فرعون، بل وأغرق عدوّهم، وأنجز وعده لهم بأن يمنّ عليهم، ويجعلهم أئمة، ويورثهم ملك فرعون، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[52]، وقال جلّ وعلا عن فرعون ومن معه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) ﴾[53]، فماذا كان موقف القوم يا تُرى؟.

شقّ الله تعالى لموسى ومن معه البحر، فعبروه، وغرق فيه فرعون وجندُه، وعاين بنو إسرائيل المعجزات، وتأييد المولى تبارك وتعالى لنبيّهعليه السلام، فما كان منهم بعد ذلك إلا أن قالوا لنبيّهم، بعدما مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[54]!!، وقد يكون هذا بسبب حداثة عهدهم، وتعوّدهم على رؤية مشاهد عبادة الأصنام على عهد فرعون، وقد يُعذرون بجهلهم في مقالتهم الآثمة هذه..، ولكن هل يُعذرون بمتابعتهم السامريّ في عبادة العجل؟، وقد علموا أنّه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟، فقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى أنّ موسىعليه السلام لما ذهب إلى ميقات ربّه، وغاب عن قومه أربعين ليلة، عبدوا العجل، بل أشربت قلوبهم حبّ هذه العبادة الباطلة، وهو ما جعل موسى يغضب غضبا شديدا، لم يتمالك معه نفسه، فألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، لعظم ما ارتكبه بنو إسرائيل من الإشراك بالله تعالى، وقد غلّظ ربّ العالمين لهم العقوبة، وحكّم فيهم القتل، أن يقتل بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[55].

إنّ إقدام بني إسرائيل على هذه الفعلة الشنيعة، بعدما منّ الله تعالى عليهم، وأنجاهم من فرعون الذي سامهم سوء العذاب، وقتّل أبناءهم، واستحيى نساءهم، لدليل كافٍ على أنّهم بلغوا في انطماس الفطرة، وفساد السريرة، وعمى البصيرة مبلغا عظيما، وهذا ما أدخلهم إلى مرحلة ثانية هي مرحلة الغضب الإلهي، والعقاب السماوي، حيث كتب

المنارة للاستشارات

الله تعالى على هؤلاء القوم بعد هذه الجريمة الشنيعة، بأن يعيشوا أذلّة بين الناس، مهما ملكوا من أموال، وبلغوا من مناصب ومراتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾(56)، قال ابن كثير رحمه الله: "أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضا، كما تقدم في سورة البقرة.. وأما الذّلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغارا في الحياة الدنيا.." (57).

ولا يُقال هنا إنّ هذا الكلام لا تصدّقه أخبار بني إسرائيل، وإقبال كثير منهم على الله تعالى، والتزام شرعه، سواء منه ما نزل على موسى عليه السلام، أو ما جاءت به الأنبياء بعده، وعلى رأسهم، وهو خاتمهم نبيّنا محمّد ﷺ، لأنّ هذه الذّلة التي كتبها الله تعالى على بني إسرائيل لا تشمل جميع أفرادهم، وإنّما تستثني صنفين منهم، الأوّل صالحوهم وأتباع الأنبياء منهم، فهؤلاء لا ذنب لهم فيما فعل أقوامهم، وإن أصابهم شيء من عذاب الله تعالى لبني إسرائيل، فإنّهم يبعثون يوم القيامة على نيّاتهم، لأنّ سنّة الله تعالى في خلقه، وحكمته في قضائه، اقتضت أنّ العذاب إذا نزل، فإنّه لا ينزل على مستحقّيه وحدهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(58). وأما الصنف الآخر، فهم التائبون من فعل الخطايا والذّنوب، فإنّ التوبة تجبّ ما قبلها، ولذلك أعقب الله تعالى هذه الآية، أعني التي جاء فيها خبر إصابة عبدة العجل من بني إسرائيل بالغضب والذّلة، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(59)، فباب التوبة مفتوح أمام كلّ من أقبل على الله تعالى قبل أن تغرغر روحه، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها.

غير أنّ الذي يُستلهم من هذه الآيات والوقائع، ويؤكّده الواقع المعيش، أنّ عدد ما يكون من هذين الصّنفين معاً قليل، بل قليل جدّا، إذا ما قيس بفجّار بني إسرائيل، أو قيس بصالحي الأمم الأخرى وتائبيها، وهذا ما ألمحنا إليه قريبا، ولمزيد بيانه أكثر، فلنتأمّل القصّتين الآتيتين:

القصّة الأولى: يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا

المنارة للاستشارات

مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) ﴾[60]. رجلان فقط هُما من قذف الله تعالى في قلبيهما الشّجاعة، وامتثلا أمر نبيّ الله موسىعليه السلام، وما أكبر الفرق بين هذه الواقعة، وبين ما حصل للنبيﷺ مع أصحابهرضي الله عنهم في موقعة بدر العُظمى، حين قال قائلهم: «والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[61]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك»[62].

القصّة الثانية: لمّا طلب بنو إسرائيل من نبيّ لهم أن يجعل لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله، كان ممّا أمرهم به ملكهم، وهو طالوت، أن لا يشربوا كثيرا من نهر الأردن، الذي مرّوا به في طريقهم إلى أرض المعركة، "لأن ذلك مدعاةٌ إلى البطنة والكظة والترهُّل، ثم الفتور والتكاسل، فعصوا أوامر الملك ووقعوا في الماء شربا وعبا إلا قليلا منهم، ووقع ما حذرهم منه ملكهم، وقالوا لا طاقة لنا اليوم بحرب الأعداء"[63]. وقد اختلفت الروايات في عدد من شرب منهم كثيرا، ومن أطاع الملك، واجتاز النّهر وقاتل، ونقل ابن كثير عن السّدي أنّه قال: "كان الجيش ثمانين ألفا، فشرب ستة وسبعون ألفا، وتبقى معه أربعة آلاف"[64]، وفي البخاري عن البراءرضي الله عنه أنّه كان يقول: حدثني أصحاب محمدﷺ، ممن شهد بدرا: «أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر: بضعة عشر وثلاث مائة»، قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن»[65]. وأيّاً كان، ففي الآيات التي نقلت هذه القصّة من سورة البقرة، ما يكفي للدلالة على أنّ الخير في بني إسرائيل قليل، وقليل جدّاً، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[66].

أكتفي بما سبقت الإشارة إليه، وهو أنّ بني إسرائيل قوم حُسُد، جُبناء، وأنّ الخير فيهم قليل، لا لأنّ الله تعالى جَبَرهم على ذلك، تعالى الله عن ذلك، ولكن لما توارثوه عن أجدادهم من غلظة الطباع، ولؤم النفوس، وحبّ الدنيا، والرضا بالدنية، والتخلّف عن المكرمات.

الإنارة للاستشارات

ولا أريد أن يفوتني في هذه المناسبة أن أشير إلى مسألة قد تشفي غليل كثير من المتحيّرين مما جاء في هذه السطور، من ذكر معضلة التوارث التي عرفها بنو إسرائيل، وما قد يترتّب عن القول بها من تبرير كثير من الناس لأنفسهم، أو لغيرهم، ركوب موجة الفساد والإفساد، وإلحاق الأذى بالآخرين، بزعم أنّ هذا طبع فيهم، ورثوه عن أجدادهم، ولا حيلة لهم في التخلّص منه، ولهؤلاء نقول:

إنّ الله تعالى، بعدما عاقب بني إسرائيل بالتّيه في صحراء سيناء، بسبب خذلانهم لنبيّهم موسى عليه السلام، "هلك الجيل الذي عاش الذل والهوان أيام فرعون في التيه..، ونشأ جيل الصحراء من بني إسرائيل في بيئة الحرية القاسية، فطلبوا من نبيٍّ لهم من بعد موت موسى عليه السلام، في ساعة من ساعات النشاط وصفاء الذهن، أن يبعث لهم ملكا للجهاد في سبيل الله"[67]، وهنا لفتة طريفة، وحكمة من حكم الزّمان، لا ينبغي أن يفوّتها أهل العقول والأفهام، وهي أنّ للبيئة أثرا عظيما على أصحابها، إيجابا وسلبا، وأنّ الآفات القديمة لا تزول إلا بمرور وقت طويل، وفي بيئة مخالفة للبيئة التي ظهرت فيها هذه الآفات، ولذلك لم يزل الحكماء والناصحون، والأطبّاء والصالحون، يوصون بمفارقة مواقع الفساد، ومواطن الرّذيلة، فهؤلاء بنو إسرائيل تاهوا أربعين سنة فتغيّر حالهم ولو بعض الشيء، الأمر الذي يؤكّد ما ذكرنا من أثر البيئة على أصحابها، وسلطتها عليم .

ولكن، مع الأسف، لم تكن هذه الفترة كافية لتنقية هذه النفوس المريضة، والعقول الآفنة، فبعد أن بعث الله تعالى لهم طالوت ملكا ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾[68]،ولا أريد أن أشير هنا إلى ما دلّتنا عليه الآية الكريمة من جهل هؤلاء القوم، وحسب، بحيث اعتمدوا في أمر عظيم كهذا على مقياس المال، وشرف النسب، ونحو ذلك، وإنّما الذي لفت انتباهي وأنا أتتبّع فصول هذه القصة، أن طالوت هذا ينتهي نسبه إلى بنيامين بن يعقوب عليه السلام[69]، ولذلك "نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا نحن أحق بالملك منه"[70]، وها هو التاريخ يعيد نفسه، وها هي العنصرية تظهر من جديد، وها هم أولاءِ الأحفادُ يظهَرون في ثوب الأجداد، ومن أشبه أباه فما ظلم.

ـ ظهور طائفة اليهود، وخلاصة القول في أصل هذه التسمية.

بعد هذه اللمحة السريعة عن تاريخ بني إسرائيل، وتطوّر انطباعهم على صفات الشرّ، وخصال السوء، من حسد، وغلّ، وكذب، وخيانة، وغرور، وتعلّقٍ بالدنيا، ثمّ جبن، وذلّة، وصغار، ومسكنة، وتقبّل للاستعباد، والإذلال، والاستعمال، بقي أن أمهّد للحديث

المنارة للاستشارات

عن اليهود، وكيف نشأت هذه الفرقة، وما أصل تسميتها، بحيث يتكامل في أذهاننا، ويتّضح جيّدا، معنى وصف الله تعالى لليهود بأنّهم أهلُ غضب، وتبعات ذلك على نفسياتهم وسلوكاتهم المختلفة.

وأعني بالتّمهيد لهذا الحديث بيانَ وقت ظهور طائفةٍ، أو على الأقل اسم اليهود، لأنّ الباحث عن أصل هذه التسمية، يجد أنّ أغلب من تكلّم عنها، لم يبيّنوا وقت استبدال مصطلح اليهود بمصطلح بني إسرائيل، وهل هما فرع وأصل، أم جزء وكلّ، أم اسمان لمسمّى واحد، إذ نجدهم يقولون: أصل كلمة يهود من كلمة هاد يهود، "سُمّوا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا إنّا هدنا إليك، أي تبنا ورجعنا وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم"(71)، وغيرهم، وقال أبو عمرو بن العلاء: "سُمّوا بذلك لأنهم يتهوّدون، أي يتحركون عند قراءة التوراة"(72)، وأشهر هذه الأقوال أنّ أصل تسمية اليهود هو كلمة يهوذا، وهي اسم أحد أبناء يعقوب عليه السلام(73)، "وإنما قالت العرب يهود بالدال للتعريب، فإن العرب إذا نقلوا أسماء من الأعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها"(74)، وقد رجّح هذا القولَ كثيرٌ من العلماء والباحثين، ومنهم المؤرّخ الشهير البيروني، الذي قال: "وإنما سمّوا باليهود نسبة إلى يهوذا، أحد الأسباط، فإن الملك استقرّ في ذرّيته، وأبدلت الذّال المعجمة دالا مهملة، لأنّ العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها"(75).

وقد وقع اختياري على هذا القول، لاشتماله على ميزتين اثنتين:

الأولى استعماله أسلوب الحصر، حيث قال: وإنّما سُمّوا باليهود، وفيها صيغة جزم بصحّة هذا القول.

والثانية أنّه علّل تسمية اليهود بهذا الاسم نسبة إلى يهوذا، بكون الملك استقرّ في ذريته، وهنا نتساءل:

- ماذا عمّن لم يكن من سلالة يهوذا من بني إسرائيل، هل كان يُطلق عليه لقب يهوديّ؟.

- وتساؤل آخر هو: ماذا كان يُدعى من كان ينتهي نسبه إلى هذا السبط من بني إسرائيل، قبل استقرار الملك في ذريّته؟.

أمّا عن السؤال الثاني، فليس بين أيدينا من نصوص القرآن الكريم، ولا السنة النبوية، ولا أخبار التاريخ، وقصص الأنبياء، ما يدلّ على أنّ من بني إسرائيل قبل ظهور الملك فيهم من كان يلقّب باليهودي، ولو كان منشأ تسمية اليهود هو انتهاء نسب أصحابها إلى يهوذا وحسب، لكانوا سُمّوا بذلك قبل هذه الفترة، أعني ظهور الملك في بني إسرائيل في عهد داود وسليمان، ومن بعدهما من الملوك.

إنارة للاستشارات

وأمّا عن السؤال الأول، وهو أكثر إشكالا، فهو أنّ تسمية اليهود، ومنذ ظهورها، إلى اليوم، لا نجد من يتحرّى نَسب من يريد إطلاقها عليه، أإلى يهوذا ينتهي أم إلى غيره، وإنّما الذي حكاه التاريخ أنّ عيسىعليه السلام لمّا بُعث في بني إسرائيل كان عامّة من يدعوهم اليهود، وهم من طاردوه، وخطّطوا لقتله، وعليه فإنّ الاكتفاء بالقول بأنّ أصل تسمية اليهود هو اسم يهوذا، هو مذهب ينقصه بعض التّدقيق.

ولعلّ من ينعم النّظر في تاريخ هذه الطائفة، تطمئنّ نفسه إلى القول بأنّ أصل هذه التسمية هو أمرٌ تاريخيٌّ بحت، وذلك أنّ مملكة بني إسرائيل انقسمت بعد موت نبيّ الله سليمانعليه السلام، قسمين: "مملكة رحبعام بن سليمان، ولم يتبعه إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين، وتُلقّب بمملكة يهوذا، لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا...، ومملكة ملكها يوربعام بن بناط، غلام سليمان، وكان شجاعا نجيبا، فملّكته بقية الأسباط العشرة عليهم، وجعل مقر مملكته السامرة، وتلقَّب بمُلك إسرائيل، إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية، وعبدوا الأوثان، فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية، ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفا وخمسين سنة، ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين"[76]. ولا يناكد هذا القولَ حديثُ النبيﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه..»[77]، بل على العكس من ذلك تماما، فهو يؤيّده ويعضده، لأنّ قولهﷺ يُهَوّدانه، ينفي أن تكون التسمية عِرقيّة، فالتّهويد والتنصير قد يشمل العربي، والهندي، والحبشي، وغيرهم، وإنّما قصد النبيﷺ بقوله يهوّدانه، أي يجعلانه يهوديّا، أي منتميا إلى طائفة اليهود، لا إلى ذرّية يهوذا، والله أعلم، وعليه فإن الذي يُستفاد من هذا العرض لنشأة هذا المصطلح ما يلي:

- أنّ أصل تسمية اليهود هو دولة يهوذا لا اسمه.
- وأنّ هذه الدولة لم يتّبعها سبط يهوذا وحده، وإنّما سبط بنيامين أيضا، وإنّما غلّبَ اسم يهوذا على هذه المملكة كونُ معظم أتباع ملكها هم من ذرّية يهوذا.
- وأنّ الذي أظهر هذه الدولة، وجعل الناس يعرفون بني إسرائيل بها، هو سقوط دولة إسرائيل التي حكمها يوربعام، لا كون عامّة بني إسرائيل كانوا تحت ملكها، ولذلك كان سائغا الأخذُ بقول أحد الباحثين الذي اعتبر "أن تلقيبهم باليهود كان من قبل ملوك الفرس الذين صار اليهود تحت حكمهم بإسقاطهم لدولة بابل"[78]، والله تعالى أعلم.

ومن هنا ينزاح مِن أمامنا إشكال لطالما أربك بعض الباحثين، أو على الأقلّ المطالعين لتاريخ اليهود والنصارى، أو التّالين للآيات القرآنية النازلة فيهم، فكان ربّما

الإنارة للاستشارات

يقول، ولو بصوت غير مسموع، ما الفرق بين اليهود وبني إسرائيل؟، وبين النصارى وبني إسرائيل؟، وما علاقة اليهود بالنصارى؟، وهل كانوا يعيشون مع بعض؟، وربّما يشبه هذا الارتباك ما شاع بين كثير من الناس، وبعض الأساتذة والباحثين، من أنّ اليهود هم أتباع موسىعليه السلام، والنصارى هم أتباع عيسىعليه السلام، أو في أحسن الأحوال، أنّ اليهود هم قوم موسى، والنصارى قوم عيسى، أو أنّهما عليهما السلام بُعث كلّ منهما في قوم، وهذه الأقوال، نسمعها، مع الأسف الشديد، في كثير من المحافل العلمية، والمنابر الدينية، وفي بعض الرسائل والبحوث الجامعية: أنّ اليهود قوم موسىعليه السلام، والنصارى قوم عيسىعليه السلام، والحقيقة أنّ هذين النبييّن الكريمين بُعثا كلاهما في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)﴾[79]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[80]،والمطالع لآيات القرآن الكريم يظهر له ذلك جليّا، إذ لا يجد موسى يخاطب اليهود، ولا عيسى يخاطب النصارى، وإنّما كلاهما خاطب بني إسرائيل، وكلاهما لا دليل على اعتبار أتباعه أُطلق عليهم غيرُ وصف المسلمين، ويظهر ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)﴾، ولذلك فإنّ مصطلحي اليهود والنصارى حادثان بعد مئات السنين من نشأة الأمة الإسرائيلية الأولى التي كانت في أصلها أمّة مسلمة، وممّا يؤكّد هذا القول أنّ الله تعالى لم يزل يخاطب اليهود بألقاب منها أهل الكتاب، وبنو إسرائيل، ولعلّ ذلك كان منه تعالى على جهة التوبيخ والتعكيس: فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)﴾(81)، قال الطبري: "وهذه الآية عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللهصلى الله عليه وسلم، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمدصلى الله عليه وسلم"(82).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) ﴾[83]، قال ابن عطية رحمه الله: "هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمدﷺ، والكتاب التوراة"[84].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(85)، قال ابن كثير: "أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم"(86).

وقال جلّ وعلا: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [87].

وهنا ملاحظة:

وهي أنّ هذه الإطلاقات، وإن كانت مستعملة في مواضع من القرآن لإفادة معنى الذّم والتوبيخ، والتقبيح، فإنّ لها استعمالات أخرى لا تفيد هذه المعاني، ومنها مثلا قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[88]، وقوله: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[89]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾[90]، ونحوها. وهذه الاستعمالات تفيدنا أمورا كثيرة، نكتفي منها باثنين:

- أنّ الله تعالى مهما بدر من بني إسرائيل، أو غيرهم، فإنّ ذلك لا يمنع من أن يُنصف أهل الحقّ منهم، بل يعينهم على دينهم، وينصرهم على أعدائهم.
- والأمر الثاني أنّ الأمة الإسرائيلية، وغيرها من سائر الأمم البشرية، لا تعدِم أناسا صالحين، يرفضون واقع أممهم السيئ، ويصبرون على أذى أقوامهم، ما بقي الليل والنهار.

هذا عن استعمالات مصطلح بني إسرائيل في القرآن، بينما لا نجد لفظ اليهود، والذين هادوا، مستعملا إلا في سياق الذّم والإنكار والتوبيخ، وهذا معناه أنّ اليهود هم الوجه السيئ، والمرحلة الفاسدة من تاريخ بني إسرائيل، إنّهم قوم زعموا أنّهم أتباع موسىعليه السلام، وليسوا بأتباعه، وادّعوا أنّ عندهم كتابه، وهو التوراة، وليس عندهم، وإنّما حرّفوه وبدّلوه، وأدخلوا فيه ما تشتهيه أهواؤهم، وحذفوا منه ما لا تهوى أنفسهم، ولذلك

إشارة للاستشارات

أطلق عليهم ربّ العالمين قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾(91)، وإنّ هذا الصنيع الشنيع لا يكون، بل لم يكن إلا في يهود.

حَسَدَ بعضهم بعضا، واغترّوا بشرف نسبهم، وانحدارهم من سلالة الأنبياء، وفرحوا بما عندهم من العلم، ثمّ فتح الله عليهم الدّنيا، فأقبلوا عليها إقبالا شديدا، بغير وازع من الدين، ولا مانع من العقل، حتى تعلّقت بها قلوبُهم، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنّوا بها، وأصبحوا أحرص خَلق الله على حياةٍ، أيّةِ حياة، ثمّ ابتلاهم الله بظلم السلاطين والملوك، فاستكانوا، وذلّوا، وخارت عزائمهم، ورضوا بالهوان، وانقلبوا بشرا ذليلا، حقيرا، لا يأبى الظّلم، ولا يرفع أمام العدوّ رأسه.

فرحمهم الله تعالى، وأرسل إليهم أنبياءه ورسله، أخرجوهم من الذّل، وفتحوا بهم البلدان، وعبروا بهم الأنهار والوديان، ومكّن لهم ربّ العالمين، وأورثهم القصور والجنان، فاستبدلوا كفر نعمته بشكرها، وأشركوا به سبحانه ما لم ينزّل به سلطانا، وتمرّدوا على أنبيائه، وخالفوا شرعه، وتنطّعوا، وتشدّدوا فشدّد الرحمان عليهم، ولعنهم، ومسخهم قردة وخنازير، ولم يزل ربّ العالمين يغضب عليهم، ثمّ يرحمهم، ويعاقبهم، ثمّ يرفع العقاب عنهم، ولم يزل يبعث إليهم الرسل، وينزّل عليهم الكتب والشّرائع، وهم ينكثون العهد، وينقضون المواثيق، حتى حقّ عليهم غضبُه السرمديّ، وخرجوا من رحمته ملعونين مخذولين، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(92)، فأكثرُ طباعهم الذّميمة، إذن، هي عقوباتٌ من الله تعالى لهم، بسبب ما صدر منهم طيلة آلاف السنين، من المخالفة والعصيان، ومن الكفر والطّغيان، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أمر آخر، في غاية الأهمية، ينبغي الإشارة إليه، هو مسألة اختصاص اليهود بعبارة المغضوب عليهم دون غيرهم من الفجرة والكافرين، فإذا عُلم أنّ كل معصية تستوجب مقدارها من غضب الله تعالى، لاسيما ما ورد النص لاستحقاقه ذلك، فما سرّ اختصاص اليهود بالغضب المُطلق، وما هي الأدلّة عليه؟

أخصُّ خصائص اليهود التي كانت سبب استحقاقهم للغضب الإلهي الدّائم

الإنارة للاستشارات

قبل أن نذكر هذه الخاصيّة، يحسن بنا أن نُثبت كون اليهود استحقّوا غضب الله تعالى، والحقّ أن الأدلة على ذلك كثيرة، ولكن نكتفي منها بهذه الآيات القرآنية:

- ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[93].

- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[94].

- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[95].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[96].

هذا عن الأدلّة، وقد اكتفينا منها بأربع آيات، ولو شئنا لذكرنا أكثر، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

وأمّا عن سبب نزول هذا الغضب على اليهود، وملازمته لهم، فهذا أوانه:

يقرأ المسلم في صلاته، قرابة عشرين مرة، قولَ الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7)﴾، وفي الحديث الصّحيح، أنّ النبيّﷺ قال: «المغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى»[97]، فلماذا أُطلق وصفُ المغضوب عليهم على اليهود، أو بالأحرى، لماذا استحقّ اليهود غضب الله تعالى عليهم على الدّوام؟.

تكادُ تتّفق كلمة أهل التفسير، وشُرّاح الحديث، ويؤكّد ذلك أهل التاريخ على مرّ العصور، أنّ اليهود إنّما استحقوا الغضب الإلهي العميم بسبب مخالفتهم للحقّ مع العلم به[98]. يقول ابن كثير رحمه الله: "اليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم"[99]. وهذه الآفة الذّميمة تكثر في أهل الكبر، والغرور، والعُجب، والفجور، ومَن أولى بذلك كلّه مِن يهود؟. وحتى ننتقل بهذه الحقيقة من علم اليقين إلى عين اليقين، نتصفّح من

الـــارة للاستشارات

تاريخ اليهود الأسود بضع صفحات، تكشف لنا عن اتّصاف القوم بهذه الصفة القبيحة، وكيف أنّها كانت سببا في نزول الغضب عليهم، من سالف العصور، وإلى يوم الناس هذا، وسنختار حقبة واضحة من هذا التاريخ، وهي العهد النبويّ المبارك، وما عرفه من قبائح اليهود:

تحكي لنا كتب التاريخ أنّ اليهود فرّوا من الأرض المقدسة إلى الحجاز، وإلى خيبر ويثرب، لعلمهم اليقيني بأنّها مبعث النبيّﷺ(100)، وأنّهم كانوا يستفتحون على من يحاربُهم من المشركين بمبعث نبيّ آخر الزمان(101)، لكنّهم ما إن خرج هذا النبي فيهم، وفي الناس أجمعين، وكانوا أولى الناس بمتابعته ومناصرته، لأنّهم أهل كتاب، ولأنّ معهم من خبر هذا النبيّ ما يشهد بصدق نبوّته، وبأنّه جاء بالحقّ والهدى، ما إن خرج حتى ناصبوه العداء، وحاكوا له المؤامرات، وتربّصوا به الدوائر، وكانوا له من أشدّ المحاربين.

ومن عجيب أمر اليهود، وغريب حالهم، ما تُحدّثنا به صفية بنت حيّ بن أخطب رضي الله عنها (زوج رسول اللهﷺ، وهي من أصل يهوديّ)، في هذا المعنى فتقول: «كنتُ أحبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، ولم ألقهما قطّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول اللهﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيَيُّ بنُ أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب مُغْلِسَيْن، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالَّين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك؟ قال: عداوته والله ما بقيت»!!(102). فبدلا من أن يحوزوا قصب السبق إلى صحبة رسول اللهﷺ، وتأييده، ونصرته، اختاروا عداوته، فيا للسفه، ويا لفساد الرأي، وعمى البصيرة، ويا لَحُمق يهود.

-وعن عبد الله بن عمرؓ، أن اليهود جاؤوا إلى رسول اللهﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟»، قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلامؓ: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلامؓ: ارفع يدك فرفع فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبيﷺ فرجما(103).

- وعن أبي موسى الأشعريّؓ قال: «كان اليهود يتعاطسون عند النبيﷺ رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم»(104).

إنـــارة للاستشارات

- وعن عوف بن مالك الأشجعيﷺ قال: «انطلق النبيﷺ، وأنا معه، حتى دخلنا كنسية اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول اللهﷺ: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلا يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه، قال: فأمسكوا وما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم، فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفّي، آمنتم أو كذبتم، ثم انصرف، وأنا معه، حتى دنا أن يخرج فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد قال: فقال ذلك الرجل، أيّ رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك من قبلك، ولا من جدّك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه، وقالوا له شرّا، فقال رسول اللهﷺ: كذبتم، لن يقبل قولكم، أمّا آنفا فتُثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذ آمن كذبتموه، وقلتم ما قلتم، فلن يقبل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول اللهﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، فأنزل الله فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [105] الآية»[106].

في هذه القصة الأخيرة عبرة عظيمة، وملمح نفسي خطير، ينبغي على كلّ من أهمّته نفسه أن يكون منه على بال، وأن يذكره على الدّوام، وهو أنّ اتّباع الهوى قد يبلغ بصاحبه مبلَغ الهلاك، وهو راض، فهؤلاء اليهود عُرضَت عليهم فرصة العُمر، وهي رفع الغضب المضروب عليهم، وهم أعلم النّاس بأنّ نبيّ اللهﷺ لا يخلف وعده، بدليل ما سبق هذا الحديث من قصّة التعاطس، ولكنّهم صَمّوا آذانهم، وأعمَوا أبصارهم، ولم يتكلّم منهم أحد، ولو أنّهم ردّوا عليه، ولو كذبا، ومراوغةً، لالتمسنا لهم عذراً، ولكنّهم سكتوا، فقامت عليهم الحجّة، وحصل الإياس من استجابتهم، ولذلك ولّىﷺ مدبرا، وتركهم في طُغيانهم يعمهون.

ولا أحبّ أن تفوتني هنا أيضا الإشارة إلى مسألة التوارث، وهذه المرّة في قلّة أهل الخير في اليهود خاصة، وفي بني إسرائيل على وجه العموم، وأعني بهذه الإشارة ما يتعلّق بالعدد الذي طلبه النبيﷺ وهو اثن عشر، فكم اثنا عشر في تعداد هؤلاء القوم، وهم في يوم عيد، إنّ هذا ما لا يستغرب معه المرء من قلّة صالحي اليهود في مختلف العصور، وفي زماننا هذا على وجه الخصوص، فلم يبلغ اليهود، على حدّ علمي، منذ زمن ظهورهم، ما بلغوه في هذا الزمان، مالا، ونفوذا، ومكرا، وظلما، وإفساداً، وحتى لا يكون هذا الكلام

إنـــارة للاستشارات

محض إنشاء ورجم بالغيب، أُذكّر بحديثٍ سابق، جاء فيه عن النبيّ أنه قال: «لو تابعني عشرة من اليهود، ما بقي على ظهرها يهودي إلا أسلم»[107]، وحتى إن قيل إنّهﷺ إنما قصد أحبار اليهود، لا عوامّهم، فإنّنا نقول إن هذا العدد حتى في علمائهم يشعر بقلّة الخير فيهم، وأمّةٌ علماؤُها بهذه القلّة، أيُّ خير يُرجى من عامّتها؟.

وأضيف دليلا آخر هو قِلّةُ من أسلم من اليهود في زمن رسول اللهﷺ، بلهَ عن الأزمنة المتأخّرة عنه، أو المتأخّرة عليه، لأنّ أكثرهم كانوا مشتغلين بعداوته، وصدّ الناس عنه، ولذلك لم تحك لنا السيرة النبوية طيلة ثلاث وعشرين سنة قضاها رسول اللهﷺ بين مكّة والمدينة، أنّ جماعة من اليهود وفدوا عليه مسلمين، وإنّما أفرادٌ قلائل، بين كلّ واحد منهم والآخر زمن طويل، وحتّى بعض من أسلم، إنّما أسلم بدعوة رسول اللهﷺ إيّاه خاصّة، ومنهم الغلام اليهودي الذي نقل لنا أنسرضي الله عنه خبره، "وكان يخدم النبيﷺ فمرض، فأتاه النبيﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال: أسلم، فنظر إلى أبيه-وهو عند رأسه- فقال له: أطع أبا القاسمﷺ، فأسلم، فخرج النبيﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[108].

ـ من خلال ما سبق يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- بنو إسرائيل أمّة عظيمة العدد، ضاربةٌ في التاريخ، إلى قريب من زمن نبيّ الله إبراهيمعليه السلام، وبالتحديد إلى زمان يعقوبعليه السلام، فهو الملقب بإسرائيل، ومعناه عبد الله، وقيل عبد الله وصفوته من خلقه، وكلّ أمّة بني إسرائيل من ذرّيته المتفرّعة عن أولاده، وهم اثنا عشر ولدا ذكراً: "ستة أشقاء، وهم رأوبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشجر، وزيالون، وأما الستة الباقون فكلّ اثنين منهم لأمّ، يوسف وبنيامين، وأمّهما راحيل، جاد وآشر، وأمّهما زلفا، جارية ليا، دان ونفتالي، وأمّهما بلها جارية راحيل.

- لم تمرّ على العائلة الإسرائيلية الأمّ سنواتٍ قلائلَ حتى دبّت فيهم بعض الآفات النفسية، والأدواء السلوكية، الأمر الذي حَرَفهم عن سيرة أبيهم وأجدادهم، وقد توصّل البحث إلى تعديد أسباب هذه الآفات والأدواء، فكانت هذه الأربعة:

<u>الجهل</u>، وله أدلّة كثيرة منها قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾ وهذا قمّة الجهل، أن يبتغي الولد من أبيه مقابلا نظير خدمته له، وأن يظنّ أن ميل القلوب له علاقة مباشرة بالقوة والمَنَعة، فلا غرابة إذن أن ينسبوا إلى أبيهم النبيّ هذا الوصفَ الجائر، والسفيهُ ينطق بما فيه.

الأمر الثاني الذي ترشد إليه هذه الآية نفسُها هو **العنصرية**، فقد عاملوا أخويهم الصغيرين بمنطق عنصريّ، وهذا بلا شكّ وراءه وشايات نسائية، ووساوس شيطانية، تجعل المرء يميّز بين إخوته لاعتبارات جاهلية رعناء.

السبب الثالث الذي أوقع الأصول الأولى لأمة بني إسرائيل في أدواء الحسد والغرور، والجُبن والفجور، كونُهم يقطنون **البادية**، ومعلوم ما للبادية من أثر على أهلها، وعلى رأس ذلك الجفاء والغلظة، وقد صحّ عن النبيّﷺ أنه قال: "من بدا جفا"، ومما يدلّ على بداوتهم قوله تعالى على لسان يوسفعليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾، غير أنّ البداوة لا تقلب أهلها جُفاةً في كلّ حال، فهذا يعقوب، وابنه يوسف، وغيرهما من الأنبياء والصالحين، لم تؤثّر فيهم البداوة سلبا، بل ربّما ساهمت في إصلاحهم وتصفيتهم، إذا ما قاوموها بالعلم والعمل، بخلاف إخوة يوسف الذين كان معهم علم، لكنّه لم يورثهم عملا ولا صلاحا، وهذا ما ينقلنا إلى:

السبب الرابع: وهو **الغروروالعُجب**، اللذان غالبًا ما يظهران في البيئة العلمية، والأوساط المتفوّقة، في أيّ مجال كان، وقد حاز هؤلاء القوم، وذرّياتهم قصب السبق في ذلك، فضُربت بهم الأمثال في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ..93﴾ وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...14﴾، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن، وهي أكثر في واقع الناس المعيش.

- مما زاد في تشوّه النفسية الإسرائيلية أكثرَ تحوُّلُهم إلى مصر، ونبوغهم في الصناعات، وانغماسهم في الملذّات والشّهوات، الأمر الذي فتق في أنفسهم بذرة الجشع، والطّمع، وأبعدهم عن دينهم شيئا فشيئا، حتى صاروا دنيويين، لا يهمّهم إلا جمع المال وتكديسه.

- ثمّ أعقب ذلك مجيءُ فرعون الطاغية، وتحكيمه السيف فيهم، واستعبادهم، وإذلالهم بكلّ أشكال الإذلال، فغدوا شعبا مقهورا مذلولا، يرضى بالدّنية، ولا يرفع للعلم، ولا للدّين، ولا للهمّة رأسا، فورثوا بذلك خلق الذّلة والصّغار، وكذلك يكون مصير كلّ من شابههم في ذلك، أو تابعهم عليه.

- ولذلك لمّا جاءهم موسىعليه السلام، وأنقذهم الله تعالى به من فرعون، وشقّ لهم البحر، وأراهم المعجزات، لم يقدُروا ذلك حقّ قدره، بل أورثوا صغارهم خصال أجدادهم

إنـــارة للاستشارات

الذّميمة، وتضاءلت فيهم الفئات الصالحة، وتعاقبت عليهم الأنبياء والمرسلون، لكنّهم أمعنوا في محاربتهم: فريقا يقتلون، ويأسرون فريقا.

- طيلة هذه المدّة، وهي قريب من ألف عام، ولا أثر لاستعمال مصطلح غير مصطلح بني إسرائيل في التعريف بهذه الأمّة، ليظهر بعد ذلك مصطلح اليهود، الأمر الذي جعلنا نستبعد أن يكون أصل هذه التسمية يهوذا ابن يعقوب‍عليه السلام وحسب، لأنّه لو كان الأمر كذلك لأُطلق هذا اللفظ منذ أن صار ليهوذا هذا ذرّية، وأمّا إن قيل أين المشكلة في تأخّر إطلاق هذا الوصف على هذه الذّرية، لاسيما إن تزامن ذلك مع تكاثرهم، أو اشتهارهم بحدث من الأحداث، أو صفة من صفات الأمم المختلفة، فالجواب هو:

- أنّ مصطلح اليهود ظهر بعد وفاة نبيّ الله سليمان‍عليه السلام، وانقسام مملكته قسمين، إحداهما هي مملكة يهوذا، وأنّ هذه المملكة لم تنحصر في سبط يهوذا أيضا، بل كان من أتباعها أيضا، حسبما ينقل لنا المؤرخون، سبطُ بنيامين، وإنّما أطلق عليها هذا الوصف -يهوذا- لأنّ ذريّته كانت غالبية هذه المملكة.

- وعليه فإنّه يمكن لنا اعتبار تسمية يهود، وما يشتقّ منها، تاريخية الأصل، راجعة إلى دولة يهوذا، لا إلى شخصه، الأمر الذي يفسّر تأخر ظهور هذا المصطلح، ثمّ ظلّ هذا المصطلح سائدا بعد ذلك، لانقراض مملكة يوربعام، الذي تبعه باقي الأسباط العشرة، وكان مقرّها بالسامرة، وسقطت على يد الأشوريين.

- ظلّ اليهود على حالهم، بل لم تزدهم الأيّام إلا تشوّها لنفسياتهم، وانطماسا لفِطَرهم، حتى استحقّوا غضب الله تعالى، فطُبِع على قلوبهم، فلا يكاد ينجو منهم إلا القليل الذي لا يكاد يُذكر، وليس هذا وحسب، بل لا يكاد يسلَم من مكائدهم ومؤامراتهم إلا القليل من الناس، فعجبا لمن يأتمنهم على ما يملك، أو يرسم معهم طريقا يتوهّمه موصلا إلى وفاق.

المصادر والمراجع:

1.القرآن الكريم.
2.أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن، علي بن محمد الماوردي (المتوفى: 450هـ)، دار مكتبة الحياة، 1986م.
3. بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.تا.
4. بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، ط2، 1420هـ-2000م.
5. التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984هـ
6. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1990م.

المنارة للاستشارات

7. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي ، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.
8. جامع البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
9. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
10. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423هـ-2003م.
11. خطاب القرآن الكريم عن اليهود، للدكتور عرفة عبد المقصود عامر، مقال منشور على شبكة الأنترنيت، 1431هـ-2010 على موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.
12. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، لسعود بن عبد العزيز الخلف، تحقيق: مكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط4، 1425هـ-2004م.
13. الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لعبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.
14. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ-2009م.
15. صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ–1993م.
16. عيون الأثر، في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيّد الناس، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م.
17. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.تا.
18. فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ
19. قصص الأنبياء، لابن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1388 هـ-1968م.
20. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ
21. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ
22. مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م.
23. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا.
24. معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417 هـ - 1997م.

25. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ

الهوامش:

---

[1] انظر أقوال المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ من سورة البقرة، وهو المورد الأول لكلمة إسرائيل في القرآن حسب ترتيب المصحف الشريف، فكلّهم على أنّ هذه الكلمة أعجمية مركّبة من إسرا، وئيل، واتّفقوا على أنّ إيل هو الله بالعبرانية، وعزاه القرطبيّ إلى ابن عباسﷺ، انظر: تفسير القرطبي، ج1، ص331، انظر أيضا: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، ص12.

[2] جامع البيان، للطبري، ج1، ص553.

[3] المائدة: 18.

[4] البقرة: 111.

[5] آل عمران: 24.

[6] آل عمران: 75.

[7] وإنّما ينصبّ الاهتمام في هذا البحث على الصنف الأوّل، وهم اليهود.

[8] الذي عليه أكثر علماء الإسلام أنّ إخوة يوسف﵇ لم يكونوا أنبياء يوما في حياتهم، راجع هذه المسألة في: تفسير ابن كثير، ج4، ص372، وتفسير القرطبي، ج9، ص133، والفصل لابن حزم الأندلسي، ج4، ص107، وغيرها.

[9] جامع البيان، للطبري، ج15، ص558.

[10] المحرر الوجيز، لابن عطية، ج3، ص220.

[11] تفسير القرطبي، ج9، ص130.

[12] تفسير ابن كثير، ج4، ص372.

[13] جامع البيان، للطبري، ج15، ص561.

[14] بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص12.

[15] أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، رقم: 2587، ج3، ص158.

[16] أبناء يعقوب هم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزيالون، ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر، دان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ثم توفيت ليا، فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، انظر: تفسير القرطبي، ج9، ص130، وعلى أنّ يوسف وبنيامين أصغر أبناء يعقوب جماهير أهل التفسير، وغيرهم، وإنما حصل الخلاف في أسماء بعض هؤلاء الإخوة، وأمّا عددُهم، وترتيبهم، فلم أجد من خالف في ذلك، والله أعلم.

[17] المحرر الوجيز، لابن عطية، ج3، ص221، بتصرّف يسير.

المنارة للاستشارات

(18) خطاب القرآن الكريم عن اليهود، للدكتور عرفة عبد المقصود عامر، مقال منشور على شبكة الأنترنيت، 1431هـ-2010 على موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.

(19) معالم التنزيل، للبغوي، ج4، ص217.

(20) تفسير المنار، لرشيد رضا، ج12، ص216.

(21) النساء: 159.

(22) تفسير القاسمي، ج3، ص364.

(23) تفسير ابن عطية، ج3، ص221.

(24) تفسير ابن عاشور، ج12، ص221.

(25) قال الطبري: وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان، أهل مواش وبرية، انظر: جامع البيان، ج16، ص276، وهو قول عامّة أهل التفسير، وفي بعض الدراسات أنّ "تسمية بني إسرائيل بالعبرانيين راجع إلى كلمة العبور، التي تحمل معاني التنقّل والتحول، وسبب إطلاق هذا الاسم عليهم –كما يرى أصحاب هذا القول- هو عيشهم في الصحراء، وعبورهم الوديان والبلدان، والبحث عن أسباب العيش من مكان إلى آخر، ولهذا لما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان، وعرفوا المدنية، صاروا ينفرون من هذه الكلمة التي تذكرهم بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يفضلون أن يُعرَفوا ببني إسرائيل فقط"، انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص9-10.

(26) سنن أبي داود، رقم: 2861، ج4، ص482.

(27) فيض القدير، للمناوي، ج6، ص94.

(28) يونس: 93.

(29) الشورى: 14.

(30) آل عمران: 19.

(31) انظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص274.

(32) ذكره ابن كثير في تفسيره، ج4، ص377.

(33) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص269.

(34) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج2، ص234.

(35) بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، محمد أمين سليم، ص73.

(36) نفسه، ص71.

(37) تفسير ابن كثير، ج4، ص411.

(38) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، ج1، 358-359 بتصرف، وانظر: أيضا: تفسير الطبري، ج16، ص274، وتفسير القرطبي، ج9، ص264، وغيرهما.

(39) قصص الأنبياء، لابن كثير، ج1، ص354.

(40) نفسه.

(41) نفسه.

(42) يوسف: 77.

المنارة للاستشارات

(43) صحيح مسلم، رقم2793، وفي روايةٍ عند أحمد «لو آمن بي عشرةٌ من أحبار اليهود، لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»، انظر: مسند أحمد الشيباني، (رقم: 8555).

(44) بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، ص73، بتصرف.

(45) انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، ج2، ص4.

(46) نفسه، ج2، ص5.

(47) بنو إسرائيل، لمحمد سليم، ص74.

(48) البقرة: 122.

(49) المائدة: 20.

(50) بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، ص74.

(51) القصص: 5.

(52) الأعراف: 137.

(53) الشعراء: 57-59.

(54) الأعراف: 138.

(55) البقرة: 54.

(56) الأعراف: 152.

(57) تفسير ابن كثير، ج3، ص477.

(58) الأنفال: 25.

(59) الأعراف: 153.

(60) المائدة: 20-24.

(61) المائدة: 24.

(62) مسند أحمد، رقم: 3697.

(63) انظر: بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، لمحمد أمين سليم، ص78.

(64) تفسير ابن كثير، ج1، ص668.

(65) انظر: صحيح البخاري، رقم: 3957.

(66) البقرة: 249.

(67) بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، محمد سليم، ص77، بتصرف.

(68) البقرة: 247.

(69) انظر: تفسير الطبري، ج5، ص306، وتفسير البغوي، ج1، ص297، وتفسير ابن عطية، ج1، ص331، وغيرهم.

(70) قصص الأنبياء، لابن كثير، ج2، ص258.

(71) انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص12.

(72) التفسير الكبير، للرازي، ج3، ص536.

(73) كلّ من تكلّم في أصل تسمية اليهود، من مفسّرين، وباحثين، ومؤرّخين، ذكروا هذا الاحتمال، وهو اختيار الأكثرية منهم.

(74) قاله الفخر الرازي في تفسيره، ج3، ص536.

(75) انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص13.

(76) كذا في أكثر ما وقفت عليه من كتب التاريخ، واللفظ لابن عاشور، انظر: التحرير والتنوير، ج1، ص531.

(77) سبق تخريج هذا الحديث، ص390.

(78) انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، لسعود بن عبد العزيز الخلف، ص45.

(79) الإسراء: 2.

(80) الصف: 6.

(81) البقرة: 122.

(82) تفسير الطبري، ج2، ص573.

(83) آل عمران: 98-99.

(84) المحرر الوجيز، لابن عطية، ج1، ص480.

(85) البقرة: 144.

(86) تفسير ابن كثير، ج1، ص461.

(87) الأعراف: 148.

(88) الأعراف: 137.

(89) آل عمران: 113.

(90) آل عمران: 75.

(91) المائدة: 70.

(92) المائدة: 13.

(93) البقرة: 90.

(94) آل عمران: 112.

(95) المائدة: 60.

(96) الممتحنة: 13.

(97) صحيح ابن حبان، رقم: 6246.

(98) ينظر: أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية من سورة الفاتحة، وشرّاح الحديث المذكور سابقا.

(99) انظر: تفسير ابن كثير، ج1، ص141.

(100) بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، لمحمد أمين سليم، ص80.

(101) المقصود به الاستفتاح الذي في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (البقرة

المنارة للاستشارات

89)، والاستفتاح الاستنصار، كما في كتب التفسير، أي كان اليهود، قبل مبعث رسول اللهﷺ يستفتحون به، ويتوعّدون المشركين بنصرتهم إيّاه، ومؤازرتهم له، كي يكون عونا لهم، ونصرا عليهم، وكانوا يترقّبونه!، ويبشّرون به!، فلمّا جاءهم.. كفروا به!!، وحاربوه، وناصروا المشركين على عدوانه.

(102) انظر: الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي، ج4، ص207، وعيون الأثر، في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ج1، ص240.

(103) البخاري في صحيحه، رقم: 3635.

(104) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم: 940.

(105) الأحقاف: 10.

(106) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم: 7162.

(107) سبق تخريجه، ص273.

(108) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 1356.